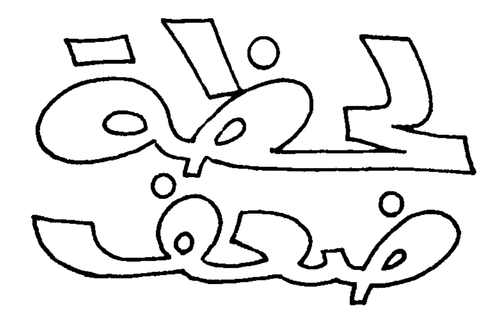
تهامة
TIHAMA

الكتاب العربي السعودي ٢٦

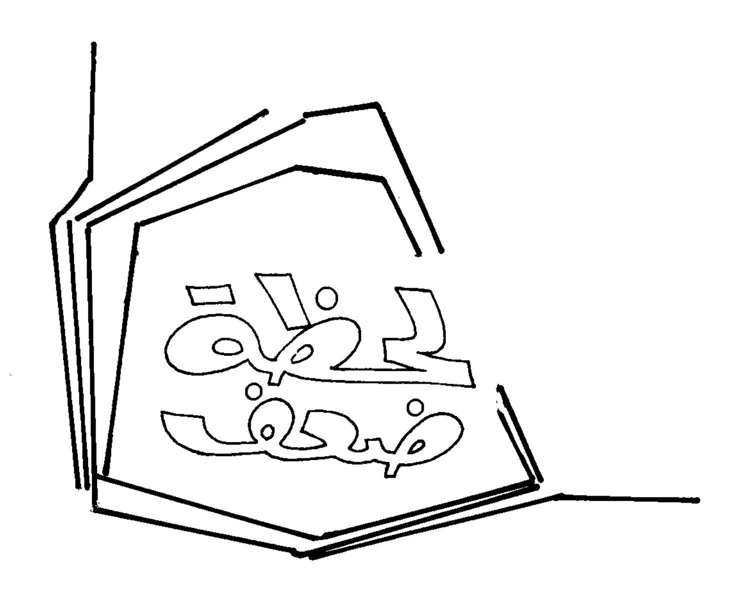
فؤاد صادق مفتي



الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤


لحظة
ضعف

إهداء

إليه ..

إلى هذا الجيل المثقل بالمعاناة، والحيرة، والقلق.. المهدد بالانزلاق اللاإرادي في بؤرة الدوامة المجنونة التي أخذت تكتسح أمامها .. كل شيء .. حيث المادة أضحت هي المعيار لقيمة الإنسان، ونقطة الارتكاز لتطلعاته، طموحه، لمثله.

إليه: أهدي قصتي هذه

فؤاد

مقـــدّمة

ترددت كثيرا عند كتابة هذه المقدمة لقصة « لحظة ضعف » ، فهذه أولى محاولاتي في اقتحام ميدان القصة الطويلة . وهو ميدان ـ في رأيي ـ شائك ووعر ..! ولهذا ، لا بد لمن يتصدى له ، لأول مرة ، من الوقوع في بعض العثرات .. واعترف ـ عزيز القارىء ـ بأنني لم أنج من ذلك تماما ..!!

فللقصة الطويلة ، اصول ومعايير مميزة ، يجب توفرها ، في رأي النقاد على الأقل ، كي يمكن الحكم على هذه القصة ، من حيث البناء الفني ، ومنحها سمة المرور ، اما لكي تأخذ مكانها المتواضع في المكتبة العربية للقصة ، أو لتنضم إلى مثيلاتها من المحاولات الشابة .. ليطويها النسيان ..!!

لا اريد أن أستبق الأمور ، أو ادعى النجاح ، كما لا أزعم أني قد بذلت قصارى جهدي ـ المقل ـ في كتابة هذه القصة ..

إنها «محاولة» اتاحتها لي الظروف ، خلال اغترابي خارج أرض الوطن بسبب عملي الدبلوماسي ، وتكونت لدي فكرة القصة كجزء من معايشتي لأحداث الوطن ، والتغيرات الاجتماعية التي تلاحقت إلى حد أثار

تساؤلات قلقة لدى المهتمين بدراسة هذه الأزمة الطفيلية على مجتمع ، عرف منذ الأزل ، ، بتشبثه العفوي بجذور التراث والتقاليد ، كي لا أقول عمق الأصالة الروحية بين أبنائه ..!

ولهذا ، عزيزي القارىء ، لم تكن هذه القصة ، كمصنف أدبي ذي قالب محكم الصناعة بالمعايير المتعارف عليها للقصة الطويلة ، بقدر ما هي مساهمة متواضعة في تسليط الضوء على بعض من جوانب الحياة لمجتمع جديد .. يتعرض ، كغيره من المجتمعات التي سبق لها ان مرت في نفس الظروف ، لموجة من الحيرة ، والقلق ، والمعاناة .. تلك التي قد تؤدي في لحظة من لحظات الضعف ، الى فقد التوازن .. وربما الانسياق اللاارادي وراء التيار الجارف .. حيث محاذر الوقوع في تلك الدوامة . التي تبتلع في طريقها .. كل شيء ..!!

(المؤلف)
١٩٧٧/٩/٤

(١)

وصله صوت المضيفة وهي تعلن عن اقلاع الطائـرة من مطـار جدة في طريقها الى لندن ، بينما كان يتطلع من النافذة الزجاجية لعله يتزود بنظرة أخيرة من والديه وإخوته واقربائه الذين كانوا في وداعه في ساحة المطار ، تنبه على صوت المضيفة بضرورة شد الاحزمة والامتناع عن التدخين .. وسحب نفسا عميقا ملأ به رئته لعله يتغلب به على التوتر الشديد الذي عصف به في تلك اللحظة ، وتحركت الطائرة بزئير غطى على توتره ذاك ، وأخذ يرقب حركة الطائرة حتى ارتفعت في الفضاء فوق سماء جدة . أخذه منظر الأضواء المتلألئة المتناثرة هنا وهناك ، والتي ، لم تلبث ، بعد بضع دقائق ، ان تلاشت عن الانظار ولفه ظلام كئيب خارج أجواء الطائرة .. وأفاق لنفسه ..

ترقرقت من عينيه دمعة باردة وهو يستعرض في مخيلته لحظات الوداع الحزينة .. احتضانه لوالدته وهي تجهش بالبكاء ، ووالده يبدو في كبريائه المصطنع ، يحاول مقاومة عبرات مختنقة .. كانت أقوى من كبريائه ! وشقيقه الأصغر .. رفيق عمره .. وشقيقته الحنون . كم هي حنونة هذه الأخت ، وزوجها إلى جانبها يحاول إضفاء جو من المرح على المناسبة الحزينة لعله يخفف من وطأة المشاعر التي جاشت بها عواطف الأسرة . يا له من رجل رائع ! لقد أفلح

بخفة دمه ومرحه في إنتزاع ضحكات خجولة من بين الدموع التي ترقرقت بها أعين الأحباء من المودعين .

.. **وسهام** ، شقيقة زوج أخته ، يا لها من فتاة بريئة ! كان حياؤها يمنعها من الافصاح عن حقيقة مشاعرها ، وهي تخالسه نظرات مليئة بالحب والحنان ، لم يكن في السابق يخطر على باله أن يفكر في معنى نظراتها تلك ، او لعلها لم تكن تنظر إليه بمثل هذه النظرات التي لها ألف معنى ومعنى . كانت علاقته بها مجرد علاقة صداقة حتمتها صلة القرابة والاختلاط بين الاسرتين ، منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها ، اذ كثيرا ما كانا يقضيان أوقاتهما معا في لعب (الكيرم) أو (الباصرة) أو يشتركان مع بقية أفراد الاسرة في الاستماع إلى حفلات أم كلثوم الشهرية على ضفاف البحر في الليالي المقمرة ، كما كانا يستمتعان معا بمشاهدة افلام السينما في منزل أحد الأقرباء ممن كانوا سعيدي الحظ بحيازة تلك الآلة السحرية المحبوبة ! انه يذكر تماما منظرها المثير للضحك يوم أن أجهشت بالبكاء عند موت البطلة ليلى مراد في أحد افلامها مع أنور وجدي ..

ووجد نفسه وهو يستعرض شريط الأحداث البعيدة التي شاركته فيها سهام وكأنه يحدث نفسه .

ـ ولكن ..! لماذا لم يخطر من قبل ، في ذهني ، أن أفكر في سهام ، وهي الفتاة الرائعة الجمال ، العذبة الحديث لقد كانت كالفراشة الجميلة تنثر مرحها في أجواء الاسرة السعيدة ، وكانت بحق دلوعة الجميع ، كانت تربطنا ، أنا وهي ، على وجه الخصوص ، علاقة خاصة .. ربما بسبب تقارب أعمارنا بالنسبة للآخرين . وربما .. ربما ماذا ؟ هل كنت حقا تحبها دون أن تشعر بهذا الحب ؟ وهل كانت هي ايضا . تبادلك نفس الشعور ؟.. لا أدري ..! ربما كانت مجرد

علاقة ود حميمة خلقتها ظروف الاسرة وتـكرار اللقـاءات .. ولـكن ! تلك النظرات المليئة بالحنان التي كانت سهام ترمقه بها باستحياء وخفر لم يعهده منها من قبل .. ماذا تعني ؟؟.. اوه .. لا أدري ..! ربما عرفت الحقيقة بعد عودتي من أمريكا في الاجازة القادمة ...

وافاق طارق على صوت المضيفة من جديد وهي تقدم له كأسا من عصير البرتقال ، فابعد عنه حزام المقعد واستلقى باسترخاء بعث في نفسه الهـدوء والراحة النفسية الغامرة بعد أن عاش تلك اللحظات مع ذكريات محببة غسلت من مآقيه عبرات الفراق الحزين .

اهتزت الطائرة عند مرورها بسحابة داكنة ، وانتابه خوف عابر لم يلبث أن تغلب عليه ، فالرحلة طويلة .. ربما استغرقت سبع ساعات الى لندن .. وبعدها رحلة أخرى إلى نيويورك ، ربما استغرقت أكثر من ذلك ، ومن نيويورك إلى لوس انجلوس .. يا لها من رحلة طويلة شاقة ! وصمـم على التغلـب على مخاوفه ، فامامه رحلة أخرى أشق واطول .. رحلة الكفـاح للحصـول على الشهادة الجامعية ، أمل حياته ، وأمل والديه .

انساق مع أفكاره . في الرحلة المجهولة ..! وأخذ يخطط لبرنامـج اقامتـه ودراستــه ونمــط حياتــه الجـديدة وساعـده ذلك على قطع المسافة الطويلة دون أن يشعر بتعب الرحلة ، حتى هبطت به الطائرة في مطار لندن ، حيث سيقضي مدة أربع وعشرين ساعة كي يستقل الطائرة إلى نيويورك في اليوم التالي .

كانت اقامته في لندن في فندق متواضع قرب الميدان الـرئيسي المعـروف بالبيكاديلي . كانت الرحلة القصيرة من المطار إلى البيكاديلي في حد ذاتها

مبعث قلق شديد له .. فكيف يتسنى له تدبير أموره وهذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها إلى اوروبا .. ربما ستساعده معرفته باللغة الانجليزية التي كان يجيدها على التغلب على الصعاب التي قد تعترضه ، وتذكر نصيحة والده بالاستفادة من العطل الصيفية لدراسة اللغة الانجليزية استعدادا لابتعاثه إلى الولايات المتحدة .. وتمنى لو أن والده موجود معه الآن ليقبل يديه ويشكر هذا الاب الرائع الذي كان يفكر بكل شيء .

ألقى بحقيبته إلى جوار السرير ، وفك رباط عنقه ، وتنفس الصعداء وهو يلقي بنفسه على السرير المريح ، وأخذه سبات عميق .

● ● ●

أفاق من سباته ، بعد ساعات ، وقد ساد الظلام أرجاء الغرفة ، نظر في ساعته ، فاذا بها تكاد تشير إلى السابعة مساء . اسرع يغتسل ، وتذكر أن عليه اداء الصلوات التي فاتته أثناء الرحلة فأخرج من حقيبته سجادة صغيرة زينت بصورة الحرمين الشريفين . وانتابته الحيرة .. إذ لا يعرف أين اتجاه القبلة ! وخطر له أن يسأل إدارة الفندق أو احد الخدم ، ولكنه تذكر أنه ـ هنا ـ في بلد آخر لا يعرف سكانه أين تكون هذه القبلة ، بل وما هي القبلة !! واستخار الله وصلى في الاتجاه الذي خطر له .

أحس بعد ذلك بالجوع الشديد يعتصر امعاءه ، فارتدى ملابسه وغادر الفندق باحثا عن معطعم يتناول فيه طعام العشاء . لقد قيل له أن هذا الميدان مليء بالمطاعم والمقاهي ، وهذا سيسهل عليه الامر .

بهره منظر الأضواء المتلألئة هنا وهناك . واعلانات النيون الملونة باشكالها الجذابة الرائعة ووجد لفيفا من الشبان والشابات من مختلف الاجناس ،

يفترشون الدائرة المحيطة بقاعدة التمثال المقام في وسط الميدان ، وبعضهم يتحاضن بطريقة تخلو من الحياء والذوق .. ولا من يعبأ بهم .. عجبا .. يا لها من بلاد غريبة ..!!

تابع سيره وهو يتلفت بحثا عن أحد المطاعم المتواضعة ، ودلف إلى احدها وهو يشد رجليه بعد أن شاهد في مدخل المطعم زجاجات الخمر على مختلف انواعها ، ترتص في شكل ملفت على رفوف البار ، وزبائن المطعم يحتسون شرابهم وهم يثرثرون ، ويتبادلون الضحكات العالية .. مما اثار اشمئزازه ، ولكن سرعان ما تغلب على مشاعره وتذكر أن عليه أن يتعود على هذه الأجواء التي ستصادفه في كل مكان خارج أرض بلاده الطاهرة .

تناول عشاءه في دقائق قليلة حيث لم يكن امامه سوى قطعة صغيرة من اللحم المشوي تعود على تناولها بعد معرفة اسمها عندما كان يسافر مع اسرته الى مصر أو لبنان .. (ستيك مشوي) أو .. (اسكالوب) . ولا غيرهما حتى يبدأ يتعلم اسماء الاطعمة الغربية .. لا يهم .. لقد كان جائعا على أي حال وقطعة اللحم ، رغم صغرها ، كانت شهية ولذيذة ، وخجل أن يطلب الى الخادم تكرار الطلب ، فدفع حسابه وغادر المطعم عائدا إلى الفندق .

نظر إلى ساعته فاذا بها لا تتجاوز التاسعة مساء ،ولم يجد لديه الرغبة في النوم باكرا ، فاخذ يسير على ارصفة حي البيكاديلي ومنعطفاته .. بهرته الأضواء المتلألئة بالوانها واشكالها المختلفة .. اعلانات دور السينما .. والملاهي .. وشركات الطيران ، اعلانات عن سجائر أو انواع من الخمور ، أو الشكولاته .. وهذا الجمع العجيب من الناس ، من مختلف الاجناس والألوان ، يتسكعون على أرصفة الشوارع يتلهون بالنظر في واجهة المحلات التجارية أو مشاهدة الاعلانات المضيئة .. أو يتلهون باحتساء قدح من الشراب ..

لم يكن هذا الجو بالغريب عليه ، فقد سبق أن شاهد مثله في شوارع القاهرة أو بيروت وبحمدون وعاليه .. ولكن لم يكن ، آنذاك ، يشعر بمثل احساسه الآن بالوحدة والعزلة . وجد نفسه غريبا عن هذا الجو وعن هؤلاء الناس المتسكعين بحثا عن المتعة أو هدرا للوقت .. ولكن ! ما عليه ، اليس ، هو أيضا ، مثلهم يتسكع وينظر إلى واجهات المحلات التجارية ودور السينما ومرابع الحي .. بانوارها الصارخة ، كأنما تعلن عن خباياها وما تكنه من إغراء وفجور ..!!

ووقف أمام إحدى دور السينما وهو فاغر فاه امام مشهد لأحد اعلانات السينما عن الفيلم الذي يعرض في تلك الصالة ، لم يصدق عينيه في بداية الأمر ..! كان المشهد فوق ما كان يتصور يمكن أن يحدث هكذا ، وبالشكل الفاضح الخادش للحياء ! كان منظر البطلة وهي عارية تماما بكل تفاصيل جسدها المثير الفاتن ، وهي تتخذ وضعا معينا يزيد من ابراز اثارتها وانوثتها ، وقد استلقى إلى جوارها البطل في وضع فاضح ، اجتر حبات العرق من جبينه الذي أندى خجلا . أخذ ينظر مشدوها إلى هذا المشهد الاعلانـي ، وإلى صورة الممثلة العارية .. وشده المنظر .. لا يريد أن يرفع نظره عنه ، واحس بدمائه الحارة تفـور في عروقـه ، ورائحة الجنس وخيالاتـه تملك عليه كل حواسه .

استدار من مكانه ، ودلف إلى منعطف قريب جذبته إليه أضواء اخرى مثيرة صارخة لإحدى دور اللهو الليلي ، كانت واجهة المحل الزجاجية مليئة بالصور العارية تماما لكلا الجنسين ، وكل منها يمثل وضعا فاضحا اثار من جديد سريان الدماء الحارة في عروقه .. كان المنظر مدغدغاً لحواسه البهيمية ..!! استغرق في النظر على غير وعي منه..! وقطع عليه استغراقه صوت أحد

الواقفين على باب الملهى يدعوه للدخول ، ويغريه بوصف برنامج الملهى ، والمتع العابثة التي سيمكنه الاستمتاع بها نظير جنيهين أو ثلاثة جنيهات . وبلا شعور منه وضع يده في جيبه يتحسس ما معه من نقود بالعملة الانجليزية ، وهو يفكر في اقتحام هذه المغامرة المثيرة ..

واصطدمت يده بشيء صلب داخل جيب سترته ، واقشعرت يداه وانتفض انتفاضة كمن مسه تيار كهربائي صاعق ، واخذ يتمتم بصوت مرتفع .. مبحوح : أستغفر الله العظيم ، استغفر الله العظيم ..

أخرج يده من جيب سترته وهو يحمل المصحف الصغير الذي أهداه له والده لحظة الوداع ، وقبله بحنو وخشوع ، والدموع تترقرق من عينيه ، كأنما تغسل أثام نزوته العابرة ، وترك دموعه تنسال على وجنتيه وكل قطرة منها بمثابة قربان لطلب المغفرة ! وعاد إلى فندقه مطأطىء الرأس خشية أن تقع عيناه من جديد على مشهد آخر يفسد عليه تلاوة فعل الندم .!!

صلى صلاة العشاء ، وارتدى منامته وألقى بنفسه على السرير خائرا .. والافكار المتصارعة تسحق شرايين قلبه المفعم بالألم والاضطراب .. حتى استغرقه النعاس وقضى ليلته متقلبا على أتون من جمر ، .. والدماء الحارة تسري في عروقه فتؤرق منامه .!!

وجد نفسه فجأة ملقيا في وسط كوم من الأفاعي الصفراء الضخمة ، وهي تتلوى فوق بعضها البعض .. وتخرج السنتها بين فينة وأخرى كأنما تلعق الفحيح الصادر عنها .. وتكالبت عليه الأفاعي وهي تتمرغ في احضانه ، ووثبت احداها فجأة ، فاذا بها على شكل امرأة صارخة الجمال والانوثة ، تشبه إلى حد كبير صورة تلك الحسناء التي رأى صورتها العارية على واجهة دار



السينما ، وتلقفته المرأة الأفعى بين يديها وهي تتلوى وتتراقص وألسنة الافاعي الأخرى تمتد لتلعق الفحيح ، وهي تتراقص على انغام ناي هندي .. وفجأة تحولت تلكَ الافاعي الى راقصات عاريات وفحيح الشهوة الماجنة يملأ المكان .. وغاص في أعماق الدوامة .. حتى النهاية ..!

واستيقظ في الصباح وهو منهك يعاني من صداع شديد أفسد عليه صباحه ، وقام واغتسل وهو يتمتم بعبارات الاستغفار ، وادى صلاة الصبح - قضاء - واتجه إلى حقيبته يعدها استعدادا لمتابعة الرحلة .



(٢)

اقلعت به الطائـرة من لنـدن متجهـة إلى لوس انجلـوس مرورا بمطـار نيويورك . وكانت مقاعدها تغص بالمسافرين من شتى الاجناس ، وصادف جلوسه إلى جوار سيدة امريكية في العقد الخامس من عمرها ، كانت تبدو لطيفة الطباع ، دمثة الخلق ، وقد ارتدت طقما برتقاليا زاد من وقارها الجميل على الرغم من كبر سنها ، إلا أنها كانت تبدو فاتنة وهي في هذه السن .! وذكره منظرها باحدى ممثلات هوليود التي كثيرا ما كان يشاهدها في السينما ويعجب بها .. نعم إنها تشبه إلى حد كبير كيم نوفاك .. بجسدها الفاره ، وشعرها الاشقر ، و.. صدرها الشامخ ! كانت رائحة العطر المثيرة تنبعث من بين خصلات شعرها الاشقر فتدغدغ حواسه ، وشعر بالحرج الشـديد وهـو يحاول الابتعاد عنها حتى لا تلامس كتفاه كتفها بجواره على المقعد .

أخذ يتلهى عنها بالنظر إلى بقية المسافرين وتفحص وجوههـم .. تلك السيدة العجوز ربما تجاوزت الثمانين من عمرها ، ماذا تفعل بمفردها في هذه الطائرة ..؟ أين كانت ؟ وكيف تقوى على تحمل متاعب السفر ! ربما كانت في زيارة لأحد أقربائها في اوروبا ، أو أنها ذاهبة لزيارة أحدهم في أمريكا .. وربما كانت مجرد عجوز سائحة من اولئك السـواح الـذين يمـلأون مدن اوروبـا



ومتاحفها بعد أن أضنتهم الحياة وتبقى لهم القليل كي يعوضوا ما فاتهم في شبابهم الذي ذوى في زخم الحياة .. ولكن أنى لهم الاستمتاع بالترحال وهم يكابدون أعباء سبعين عاما من الكد والمعاناة ..!؟ وقال لنفسه : ما عليك .. فليست هذه مشكلتك ، ربما كانوا أكثر سعادة وأقوى شعورا بالمتعة مما تظن !

وهذا الرجل الملتحي الجالس إلى جواره .. أنه يذكره باحد نجوم السينما الامريكيين .. جبهته العريضة وطوله الفارع ، ولحيته الكثة ، وشارباه العريضان .. أنه مستغرق في سبات عميق .. لا بد أنه رجل سعيد هذا الذي يستطيع بمثل هذه السهولة أن ينام ملء جفنيه وهو على متن طائرة عملاقة تعبر المحيط تحت رحمة الأقدار ..!

وهذان الزوجان السعيدان .. لا بد انهما زوجان متحابان .. يظهر ذلك من نظرات الزوجة وهي تحتضن ذراعه وتتوسد كتفه في حنان واطمئنان ، لا بد انهما زوجان عائدان من رحلة شهر العسل !

وجاءت احدى المضيفات ، وهي تحمل في يدها قائمة الطعام وتسأله عن نوع المشروب الذي يريد .. كانت ترتدي طقما كحليا مشدودا على جسدها بشكل مثير ابرز مفاتنها وقاوم رغبة شديدة في استراق النظر إلى نتوءات جسدها المثير ولم يفلح . ظل يتابعها بنظراته المحترقة حتى تنبه لنفسه على نظرات جارته الباسمة أو لعلها الساخرة من مراهقته تلك !

وقع نظره ، على غير قصد منه ، على ساقي السيدة التي بجواره ، وقد انزاح عنها طرف الطقم البرتقالي وابتلع ريقه بصعوبة ، وهو يقاوم من جديد استراق النظر إلى ساقي جارته .. وربما كانت قد أحست بنظراته تلك فعدلت من جلستها بحيث إنزاح طرف الطقم البرتقالي أكثر فأكثر ، وبدت أطراف فخذيها .. مما جعل العرق يتصبب منه ، استجمع البقية الباقية من صموده

وأشاح بوجهه عنها وأخذ ينظر من النافذة إلى السحب البيضاء المتراكمة اسفل الطائرة . والتي كانت أشبه باكوام هائلة من القطن المندوف الناصع البياض .. لقد قيل له أن منظر الثلوج يشبه إلى حد كبير هذا المنظر .. ولكنها على أي حال سحبا وليست ثلوجا ، فالطائرة فوق المحيط ولا توجد جبال هنا ! لقد سمع ذات مرة عن وجود جبال من الجليد فوق سطح المحيطات ربما كان سيتسنى له مشاهدتها فيما لو انزاحت تلك السحب ، ولكن الوقت كان خريفا ، والثلوج تتساقط في الشتاء ..

وقطع عليه هروبه المصطنع صوت جارته وهي تسأله عن وجهة سفره وبلده واسمه .. كان صوتها ودودا متلطفا أرغمه على ايلائها ما يتوجب عليه من لياقة في مبادلتها الحديث . عرفت عنه كل شيء ، وابدت له سرورها الشديد عندما علمت انه يقصد مدينة انجلوس لمتابعة دراسته في احدى جامعاتها ، اخبرته أنها هي أيضا تقيم في لوس انجلوس ، وعرضت عليه تقديم مساعدتها له في أي أمر قد يحتاجه وأخبرته أن لديها ابنا في مثل سنه وابنتين احداهما متزوجة والأخرى في سن الدراسة وتقيم معها في المنزل وأنها - أي الام - تعمل في إحدى دور الازياء وقد كانت في زيارة لباريس ولندن للاشتراك في احد المهرجانات الدولية لعرض الازياء .

استغرقه الحديث ، وتغلب على احساسه السابق بالخجل ومشاعر المراهقة التي انتابته في بداية الأمر ، وساد بينهما جو مرح أثناء تناولهما طعام الغداء ، وسألته عن الاطباق المعروفة في بلاده .. وكيفية صنعها ، وعن تقاليد الزواج والمرأة والاسرة ..

حدثها بكل شيء ، واستفاض في الحديث كمن يلقي محاضرة في احد فصول الدراسة ووجد في ذلك متعة لا حد لها .. إذ لم يسبق له أن تحدث إلى أحد بمثل تلك الطلاقة ، خاصة مع .. امرأة ..! امرأة غريبة عنه ، لا يعرف

عنها أي شيء من قبل ،! ويبدو أن السيدة ادركها التعب ، فاسترخت على مقعدها واغمضت عينيها في محاولة لاستجلاب النعاس .

استغرقه صمت طويل ، وبدأ يحس بالتعب ، ولكنه لا يستطيع النوم وهو على متن هذه الآلة العجيبة التي تحلق في السماء كأنها طائر العنقاء ، وازيز محركاتها الضخمة يتناهى إلى سمعه كعواء ذئب جائع في خضم صحراء قاحلة هجرتها الظباء .

أخرج من جيب سترته المصحف الصغير وهو يتذكر ما مر به في الليلة الماضية !! واستعاذ بالله وأخذ يتلو بعض آيات من القرآن الكريم بصوت منخفض وهو يحاول تقليد أحد المقرئين في الحرم المكي الشريف كما تعود دائما ، وانتابته طمأنينة حلوة لا يريد أن يفيق منها وهو يتابع التلاوة . قطعت عليه السيدة التي بجواره (مسز كلارك) ـ كما قدمت له نفسها من قبل ـ تلاوته لتسأله عما يقرأ!؟ مبدية له إعجابها بطريقة التلاوة . اخبرها عن القرآن الكريم ، فأبدت له مرة أخرى إعجابها ، وتناولته من يده تتصفحه باعجاب ، وتسأله عن كيفية ترتيب سوره واصل نزوله و..

شرح لها كل ما يعرفه عن ذلك بينما كانت تبدي اهتمامها بكل كلمة يقولها . وتستزيده من الحديث عن الاسلام وعن الرسول محمد ، وعن الفرق بين المسيحية والاسلام . وتبين له جهلها الكبير للدين الاسلامي فلم تكن تعرف عنه سوى الاسم وبعض القشور التي يروجها البعض من الحاقدين عن الاسلام واحكامه وخاصة تلك المتعلقة بالمرأة والزواج والطلاق .

واستفاض في الحديث مرة أخرى عن الاسلام وجوهره والمثل والمبادىء السامية التي جاء بها ، وبين لها الفرق بينه وبين المسيحية ، ولاحظ دهشتها

واهتمامها البالغ عندما أخذ يوضح لها أن الاسلام هو خاتمة الاديان السماوية وأنه جاء بعد المسيحية متمما لها . وكيف يعترف الاسلام بالانبياء السابقين وسرد لها قصة ميلادالسيد المسيح كما وردت في القرآن الكريم ، وقصة صلبه ورفعه .. وفوجيء بها وهي تقول له ـ حقا .. أن هذا لأقرب إلى العقل والمنطق فعلا أنا مقتنعة بما ذكرت ، ولكن انتبه .. يجب ألا تعتقد اني في طريقي إلى اعتناق دينكم هذا .. فأنا على أي حال لا أعبأ كثيرا بمثل هذه الامور ، فأنا اؤمن بان ثمة إله واحد ، وبقية التفاصيل لا تعنيني كثيرا .. فانا مثلا ـ لا أعرف الطريق إلى الكنيسة إلا عند زواج أحد الاقرباء أو عند وفاة أحدهم .. مجرد مراسيم اجتماعية على الا اتخلف عنها

وضحك وهو يقول لها

ـ خسارة ! كنت أظن نفسي محاضرا جيدا ..

اجابت ضاحكة :

ـ بالعكس ، أنت رائع ، ولكنني ـ أنا ـ مستمعة رديئة على ما يبدو .

وفاجأته قائلة دون أي مقدمات :

ـ اسمع طارق : إنني أعرض عليك الاقامة معنا في المنزل ، فلدي حجرة زائدة عن حاجتنا خاصة بعد وفاة زوجي ، وزواج ابنتي الكبرى ، وسوف أضمن لك أن تكون اقامتك لدينا غير مزعجة لنا أو لك ، ولن يكلف ذلك كثيرا من المال .. سأكتفي بـ .. لنقل ستـين دولارا في الشهـر .. هه ؟ ما رأيك ..؟

راقه هذا العرض المفاجيء ، السخي ، فهذا المبلغ يناسب تماما ميزانيته ، ويريحه من عناء البحث عن السكن المناسب وتكبد نفقاته التـي لا شك

ستكون أكثر من ذلك بكثير ، لم لا ؟! لقد سمع قصصا كثيرة عن العائلات الامريكية التي تستضيف الطلبة لقاء أجر زهيد ، وسوف يمكنه الاستفادة من الاقامة مع هذه الاسرة للتمكن من اللغة الانجليزية ، على كل فليجرب ، ولن يخسر شيئا .

وقبل العرض بكثير من الامتنان ..

(٣)

هبطت الطائرة في مطار لوس انجلوس بعد رحلة طويلة شاقة ، وساعدته مسز كلارك على انهاء إجراءات الوصول المعتادة ، ووجد نفسه بعد دقائق خارج باب المطار ، توقع أن يكون أحد أفراد أسرة مسز كلارك بانتظارها بالاحضان والقبل ، ولكن لم يكن هناك أحد واستقلا عربة أجرة لتقلهما الى المنزل .

شعر بحيوية كبيرة ـ رغم أثار تعب الرحلة ـ وهو يتطلع بانبهار من نافذة العربة ، إلى المباني الشاهقة وحركة السيرة المزدحمة ، وواجهات العرض الجذابة .. ثم انتابه ـ فجأة ـ شعور جارف بالقلق والخوف من المصير المجهول الذي ينتظره في هذه المدينة الضخمة الصاخبة !! أحس بنفسه كأنما هو ذرة في خضم موج متلاطم من البشر والعربات والمباني الشاهقة التي اصابته بالدوار وهو يتطلع إليها منبهرا من نافذة العربة التي كانت تشق طريقها وسط الزحام الهائل بخفة وسرعة ، لاحظت مسز كلارك مدى ـ انبهاره بالعالم الجديد ، ولمست من تعبير وجهه ، آثار القلق والخوف ، فابتسمت له وقالت مداعبة بود :

ـ طارق ، هذا هو وطنك الجديد أعني المؤقت ، هه ؟ هل أعجبك ؟!

ولم يعرف بماذا يرد عليها ، واكتفى بابتسامة .. لا معنى لها !!

وصلت عربة الاجرة بعد مسيرة ساعة من الزمن إلى أحد الأحياء الهادئة في المدينة ، حيث اختفت المباني الشاهقة ، وشاهد عددا من المنازل الصغيرة البيضاء ترقد في سكون في ذلك الحي الهادىء .. وامام كل منها حديقة صغيرة ازدانت ، بالزهور ، وثمة نساء يتبادلن الثرثرة مع جاراتهن ، وعلى مقربة منهن بعض الأطفال يلعبون الكرة ، أو يتلهون بدراجاتهم في هدوء ومرح أدخل على قلبه شيئا من الراحة جعلته يتنفس الصعداء وهو يغادر العربة إلى منزل الاسرة ، أو منزله المؤقت في لوس انجلوس .

حمل حقيبته وتبع مسز كلارك التي حملت هي الأخرى ، حقيبتها بنشاط ومرح حسدها عليه ! لم يكن ثمة من يستقبلها أو يرحب بها أو حتى يساعدها في نقل الحقائب ..!! وفتحت الباب بمفتاح كانت تحتفظ به في حقيبة يدها وقالت له بمرح :

ـ والآن ، تفضل سيدي بالدخول إلى قصرنا الجميل ..

واشارت بيدها في حركة مسرحية كمن ينحني امام ضيف كبير .. شعر بحرج وهو يدلف إلى المنزل لأول مرة .. منزل أناس غرباء عنه ، لا يعرف عنهم اي شيء سوى تلك المعرفة العابرة خلال ساعات الرحلة.وقف حائرا يتطلع حواليه بانتظار أن ترشده مضيفته إلى الخطوة التالية . هل عليه أن يصعد إلى غرفته ؟ وأين هي ؟ أم ينتظر في(الصالون)ريثما تجهز الغرفة؟أو.. وأسعفته المسز كلارك بقولها : ـ لماذا لا تجلس ؟ لا شك أنك في غاية الاجهاد . أعرف هذا ، ما عليك ، سأجهز لك الغرفة في بضع دقائق وسيكون بامكانك أخذ حمام ساخن والارتماء في سريك حتى يحين موعد العشاء ، سأرى أن

كانت كاتي قد أبقت لنا شيئا في الثلاجة ، هذه الفتاة الشيطانة التي لا تفتأ عن الأكل وشرب زجاجات الكولا مع اصدقائها .. لاعليك سأتدبر الامر ..

حملت حقيبتها وهي تصعد درجات السلم المؤدي إلى الطابق الاعلى تنوء تحت ثقل الحقيبة . تردد في عرض مساعدته لها . ثم لزم الصمت وبقى في مكانه يتطلع إلى اثاث الصالون .. كان ثمة بضعة مقاعد مكسوة بقماش متعدد الألوان ذات تنسيق بديع ، وإلى جوارها مائدة مستديرة ارتصت اليها ست مقاعد انيقة من نفس لون قماش مقاعد الصالون ، وغطى الارض بساط أنيق من اللون البني الفاتح تناثرت عليه في فوضى محببة بعض قطع صغيرة من السجاد الاصيل وبعض الوسائد الصغيرة المتعددة الالوان .. وعند مدخل الباب شاهد آلة البيانو وعليها كراسات النوتة ، لا بد أن مسز كلارك أو ابنتها تجيد العزف على البيانو سره ذلك ، حيث أنه يعشق الموسيقى وخاصة ذلك النوع الهادىء منها ، وخطر له اذ ذاك انه ربما ، ستتاح له الفرصة لتعلم البيانو أن سمح له وقت الدراسة ، خاصة وأنه على المام بالنوتة الموسيقية ، وكان له محاولات في العزف على آلة العود والكمان .. سره هذا الخاطر .. نعم ستكون هذه هي هوايته هنا ..

وفي صدر الصالون شاهد صورة لرجل يرتدي البزة العسكرية ، بدلة ضابط في الجيش ، على جانب كبير من الوسامة ، وشاهد إلى جوار الصورة صورة اخرى ل مسز كلارك مع نفس الرجل في وضع عاطفي مؤثر ! إذن هذا هوالمستر كلارك السيء الحظ الذي لم يطل به العمر كثيرا ، وتوفي في حادثة غامضة كما اخبرته مسز كلارك ، لم يسأل عن تفاصيلها فلم يكن يعنيه ذلك كثيرا على اي حال ..

فوق المدفأة كانت هناك صورتان : احداهما لشاب وسيم يرتـدي البـزة العسكرية ، لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة ، لا بد انه بيتر ابن المسز كلارك الذي حدثته عنه ، وتلك الصورة هي لأخته كاتي بلا شك .. فالشقاوة تطل من عينيها الجميلتين وكأنها تمد لسانها لأخيها بيتر تغيظه لأمر ما .! يا لها من اسرة ..!!

راقته فكرة البقاء مع هذه الاسرة ، وشعر بتفاؤل كبير ، وزالت عنه افكار الوحدة والاغتراب ، وردد بينـه وبـين نفسـه متمتا :.. حقـا .. إنـك لولـد محظوظ ..!!

استدعته المسز كلارك لتريه غرفته ، كانت في الطابق الاعلى ، يفصلها عن حجرة كاتي ممر صغير يؤدي إلى غرفة بيتر كما اخبرته ، أما مسز كلارك نفسها فتقيم في الطابق السفلي إلى جوار الصالون . كان تنسيق الغرفة يبعث الراحة في النفس لأول وهلة ، اثاث بسيط اختلطت الوانه الزاهية لتشكل وحدة فنية جميلة ، وثمة بساط اخضر يغطي أرضية الغرفة يتماثل لونه مع لون مفـرش السرير الخارجي ، النافذة تطل على حديقة المنزل الصغيرة ، وقد ازدانـت بستائر بيضاء .. وتمتم بينه وبين نفسه مرة أخرى حقا إنك لولد محظوظ !

القى بنفسه في البانيو المليء بالصابون المعطر ، واتكأ برأسه على مؤخرة الحوض وقد اغمض عينيه في استرخاء لذيذ .. وشعر بالماء الساخن وهو يغسل عنه التعب الشديد الذي حل به اذ ذاك ثم اعقبه بنوم عميق لم يدم طويلا عندما ايقظته مسزكلارك للاستعداد لتناول طعام العشاء .

ارتدى ملابسه بسرعة ونشاط بينما كان يدندن باغنية «يا ريم وادي ثقيف» .. وهبط درجات السلم قفزا كأنه ولد شقي في طريقه إلى اللعب في الشارع ..

ـ ستجد في الثلاجة بعض المرطبات ، إن شئت ، تناول منها شيئا قبل العشاء ، او البيرة ، تفضل اخدم نفسك بنفسك ..

ـ شكرا .. سافعل .. لا تحملي همي ..

كان في الواقع في حاجة شديدة إلى كوب متقن من الشاي ، ولكن حياءه منعه من ازعاج مضيفته بهذا الطلب الثقيل ، واكتفى بزجاجة من عصير الليمون أخذ يرشفها بلذة .

وفجأة .. سمع ضجيج دراجة نارية تقف امام المنزل ، اعقبها صراخ كاتي وهي تدلف إلى المنزل منادية :

ـ مامي .. مامي .. هل عدت ..؟

ـ هالو كاتي .

ـ هالو مامي ، إنني سعيدة برؤياك .. قالت ذلك ، وهي تزيح عن رأسها القبعة المعدنية الواقية وتعيد ترتيب شعرها بلا مبالاة ! كان يتصور أن تلقي كاتي بنفسها في احضان والدتها القادمة من سفر طويل ، والدموع تترقرق في أعين كل منهما .. ولكن لم يحدث شيء من ذلك .. كان اللقاء عاديا كأنما كانت الام في زيارة قصيرة لسوق المدينة .!

تذكر ذات مرة عندما سافر إلى الطائف لزيارة عمه أثناء الصيف ، فرغم ان زيارته تلك لم تستغرق أكثر من اسبوعين ، إلا إنه استقبل عند عودته بالدموع والقبل من افراد الاسرة ، كأنما غاب عنهم أشهرا .

وطرد عن ذهنه خواطر ملحة لساعة الوداع الحزينة عند سفره من مطار جدة إذ فضل الا يفسد على نفسه ذلك الشعور الطاغي بالراحة والهدوء .



شد على يد كاتي محييا ، بينما كانت مسز كلارك تقدمه إليها وهي تقول مداعبة :

ـ احذرك كاتي من أن تزعجي طارق بشقاوتك المعهودة .. دعيه في سلام ، فهو ولد عاقل .

ـ اهلا بك ، انني سعيد بمعرفتك ، أرجو أن تتصرف كأنك في بيتك .. لعلك ستساعدني في ري الحديقة وتنسيقها .. هل تحب ركوب الدراجات النارية ؟ عندي واحدة عتيقة ، ولكن امي وعدتني بشراء اخرى جديدة عند عودتها من اوروبا .. اليس كذلك مامي ..؟

ـ نعم .. نعم .. والان هيا إلى المائدة .. ما هي اخبار اخيك بيتر ألم يحضر في عطلة نهاية الاسبوع الماضي ؟ او لعله فضل قضاءها لدى اسرة فريدمان في الريف .؟! لا أدري ماذا يفعل هذا الولد هناك ؟ لعلها جين فهي تروقه كثيرا .. أعرف هذا ..

تناول مع الاسرة الصغيرة طعام العشاء المكون من حساء الطماطم واللحم المشوي ولم يكن على المائدة اي صنف من الحلوى أو الفاكهة ! فربما قضت عليه كاتي كعادتها ..

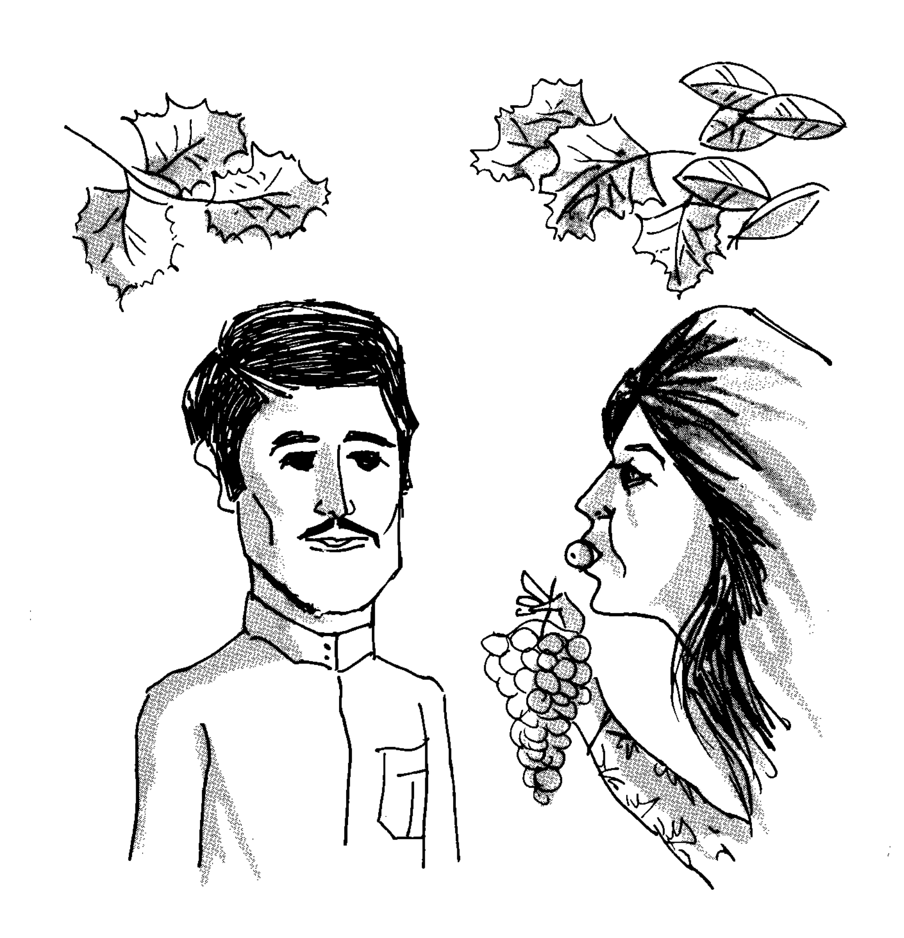
استرخي في مقعده ، بعد العشاء ، وهو يرشف فنجان القهوة ، وتمنى لو كان ذلك كوبا متقنا من الشاي بدلا عن هذه القهوة الغريبة المذاق التي كانت اشبه بحساء الطماطم الذي احتساه منذ قليل ! ما عليه ، ليس هذا بالامر المهم ، أن عليه أن يعود نفسه على اشياء كثيرة قد لا تروقه .. فالطريق لا يزال في بدايته .!

ادارت كاتي مفتاح (التلفاز) وتربعت على ارضية الصالون وهي تتكيء على بعض الوسائد المتناثرة فوق البساط ، واخذت تلوك لبانة بينما كانت تنظر ، بغير اكتراث ، الى الفيلم المعروض امامها على الشاشة الصغيرة ..ووقفت مسز كلارك وهي تتثاءب وقد بدى عليها ارهاق الرحلة ، واستأذنت بالذهاب إلى حجرتها ، وتبعها طارق إلى حجرته ، بينما لبثت كاتي تتابع مشاهدة برنامج التلفاز .

(٤)

امضى طارق الاسبوع الأول في إجراء الاتصالات الضرورية لالتحاقه بالجامعة وتهيئة نفسه للدراسة التي ستبدأ خلال أيام .. كان كل شيء تقريبا مهيئا قبيل وصوله ولم يجد صعوبة ما في إجراءات التسجيل ، والاستعلام عن برامج الدراسة ومعرفة المواعيد .. وكان له زملاء سبقوه في العام الماضي أو قبله ، ولذلك فقد استفاد من خبرتهم واستعان بهم على قضاء مستلزماته ، كما كانت كاتي تصحبه الى سوق المدينة لابتياع ملابس جديدة كانت تنقصه . وذهب معها بضع مرات إلى دور السينما القريبة من الحي .. كما عرفته على بعض صديقاتها واصدقائها ممن كانوا يترددون كثيرا على المنزل ويخرج بصحبتهم إلى أحد المقاهي القريبة ، أو التنزه في الحدائق العامة المليئة بالملاهي البريئة والالعاب المسلية .

كان حذرا ـ في البداية ـ في تعامله معهم ، فقد وجد نفسه ، فجأة في وسط غريب عنه ، غريب في كل شيء .. في طريقة الحياة ، في طريقة التخاطب . في طريقة التعامل .. واكثر ما شد انتباهه من بين كل ذلك البساطة المتناهية التي يبديها الفتيان والفتيات في تلك المجموعة للعلاقة بين الجنسين ، لم يكن احدهم يتحرج من تقبيل صديقته أو صديقة صديقه كلما تقابلوا أو كلما افترقوا



.. بل وبدون مناسبة في كثير من الأحيان .! كانت القبلة بينهم أشبه ما تكون بالتحية وبدلا من كلمة شكر أو حتى اعتذار ..!!

عاد في مخيلته إلى الوراء .. منذ عامين أو ثلاثة ، وتذكر سهام .. كانا يلعبان في أحد بساتين الطائف ووقفت سهام تقطف عنقودا من العنب كان منظرها كفيلا بارتكاب تلك المخالفة التي سيؤنبها والدها عليها ، لو علم بها ، واخذت تأكل حبات العنب وهي تتضاحك ببراءة ، شدته إليها .. نظر إليها بافتنان ، وقد احس ، لأول مرة بانوثتها الرقيقة ، وخفق قلبه إلى حد الارتباك ولم يستطع أن يقاوم رغبة جامحة عنت له .. وجد نفسه ، ومن غير وعي منه ، يختلس قبلة خاطفة من وجنتها الموردة ، سرت في جسده مسرى النار ، واحمر وجهه خجلا وهي تنظر إليه في تأنيب حنون . وكانت تلك اول واخر مرة ينساق فيها مع عواطفه المراهقة ، انه لا يزال يذكر طعم تلك القبلة الخاطفة ، رغم براءتها وبقي بضعة ايام يشعر بالخجل من نفسه ويحاول الا يلتقي بسهام تلافيا للحرج . ولكنه الآن ، يتمنى لو انه اعاد الكرة .. ربما كانت سهام تستجيب له ، ومن يدري ؟ ربما كانت تنتظره أن يفعل .. ولكنه في الحقيقة لم يكن آنذاك ـ يفكر في سهام خارج نطاق العلاقة البريئة التي كانت تربطهما ، مثلهما في ذلك مثل بقية افراد الاسرة ، ربما كانت ثمة علاقة من نوع خاص سببها تقارب السن إذ لم يكن يكبرها الا بثلاثة أو أربعة أعوام ، وكانت الاسرة تنظر إلى علاقتهما هذه نظرة طبيعية اوحتها الثقة في نظافة سلوكهما ، والبراءة الواضحة التي كانت السمة البارزة في علاقتهما تلك . ولذلك حرص فيما بعد على أن تبقى هذه العلاقة كما كانت من قبل في نمطها البريء المعتاد .. ولم يعد يذكر حادثة قبلة العنب منذ ذلك اليوم الا كونها حادثة عابرة أوحتها نزوة صبيانية سخيفة !



ـ تعال طارق .. هلم بنا نحتسي كأسا من البيرة في هذا المنتزه القريب ..

قالت إحدى فتيات المجموعة من صديقات كاتي وهي تزيح عنها القبعة الواقية عند امتطاء الدراجة النارية ، فتهدل شعرها الاشقر على كتفهـا في فوضى ،

ـ دعيه وشأنه يا ان انه ولد عاقل وجاد .. فهو لا يشرب ولا يدخن .. فلا تحاولي معه فقد تفسدي اخلاقه ..

قالتها كاتي متضاحكة ، وهي ترمقه بنظرات غامضة لم يعرف تفسيرا لها ..

ـ اوه .. لا يهم ذلك .. أنا أيضا لا اشرب البيرة ولا ادخن .. ولكن هل من ضير في ان يشاركنا طارق في هذه الجلسة؟! .. تعال طارق ، ساطلب لي ولك كأسا من الحليب المثلج فهو انفع للصحة ..

قالها كيد وهو يغمز باحدى عينيه .. فانفجرت المجموعة ضاحكة بعبث صبياني اثار ضيقه .

ما عليه ! هذه حياتهم ولا شأن له بها ، فعما قريب ستبدأ الدراسة وسوف تلتهم جل وقته ولن يجد متسعا من الوقت لمثل هذه السخافات الصبيانية ، والان ما عليه الا ان يعود ادراجه إلى المنزل .. ويشاهد برامج التلفاز فهي مسلية وتبعث في نفسه الراحة كلما استغرق في مشاهدتها ، متناسيا شعوره بالوحدة والاغتراب .

وجد سيارة مسز كلارك امام المنزل .. لا بد أنها عادت من المدينة بكثير من الحاجيات التي دأبت على جلبها معها من السوق .. ترى هل احضرت له السترة التي اوصاها باحضارها من الكواء ؟ يا لها من سيدة نشطة..لا يعرف السأم أو الملل طريقه إليها ! فرغم أنها في مثل هذه السن المتقدمة

إلا انها تحرص على ان تبدو في كامل زينتها واناقتها ، وكانت المساحيق التي تلازم وجهها ليل نهار، تضفي عليها مسحة من الجمال تنسي الناظر إليها حقيقة سنها ذاك . لماذا ترى لا تفعل والدته هكذا ؟! وهي التي كانت لا تكبر مسز كلارك ربما سوى ببضع سنوات قليلة .. تذكر والدته كيف تحرص على ارتداء «المسفع» الاسود معظم اوقاتها خشية أن يرى شعرها أحد الخدم أو غريب في الدار .. ترى هل تتزين لوالده .. بعيدا عن أعين الأولاد .؟ يذكر انه شاهدها مرات قليلة وهي في كامل زينتها وأناقتها ، وقد وضعت بعض المساحقيق على وجهها استعدادا لحفل زفاف احد الاقرباء ،أو في المناسبات الهامة حيث كانت تبدو جميلة في اناقتها تلك . وكان يلاحظ ـ بخبث ـ نظرات والده وهو يرمقها بنظرات اعجاب حنونة وكأنما يقول لها (اهوه كدة يا شيخة ..) ولكنها كانت تخجل كثيرا او تحرص على الا يرها أحد وهي في كامل زينتها تلك ، كأنما تخجل من نفسها .. وتذكر ذات مرة أنها رفضت ارتداء فستان زاهي اللون اقترحه عليها والده لحضور احدى المناسبات العزيزة . وقالت بتصميم :

ـ .. (مو عيب يا ناس البس كده . وأنا مع زوجة ولدي اللي زي بناتي ؟! خلاص يالله الستر والعافية يا ما لبسنا واتشيكنا . الدور على البنات دحين .. ربنا يمتعهم بشبابهم ..)

يا لها من امرأة رائعة ، شديدة الكبرياء مفرطة الحساسية .. تحرص دائما على أن لا تمسها نسمة من غبار يخدش وقارها وامومتها ، ولكنها ربما كانت تبالغ كثيرا في ذلك ، فمنذ أن تخطت الاربعين أخذت تمثل دور الجدة وتناست انوثتها ، كأنما تخجل منها !؟ يذكر ان والده كان يعتب عليها هذا التحول الكبير ، ولكنه رضخ في النهاية امام تصميمها وارادتها

الصلبة ، وتعود أن يتعايش مع هذا التحول الذي لا مبرر له ، كما كان يقول .

ودلف إلى الصالون وهو يعلن عن قدومه بسعال مصطنع كي ينبه مسز كلارك إلى حضوره ، تلك هي الأصول كما تعود من والده .. ولكن مسز كلارك كانت مستغرقة في قراءة مجلة وهـي مسـتلقية على بطنهـا فوق الاريكة ، وقد ارتدت فستانا خفيفا انزاح عن ساقيها حتى ما فوق الركبة وبدت مفاتنها فاضحة وهي في ذالك الوضع المثير كمراهقة صغيرة على موعد غرام !!

قاوم رغبة جامحة في متابعة النظر إلى جسدها المكور فوق الاريكة وهم بالصعود إلى غرفته ، عندما مدت يدها إليه باسمة وهي تقول له بصوت متهدج غريب ، شعر انه يخرج من حلقها بصعوبة كأنما غصت بماء !!

ـ تعال تارك كما كانت تنطق اسمه دائما ارى انك عدت ، مبكرا أين كاتي ؟!

وتلعثم وهو يجيبها بارتباك . وقد تهدج صوته :

ـ لقد ذهبت إلى مقهى الساقية الحمراء مع المجموعة لقضـاء بعض الوقت وشرب البيرة .

ـ وعدت أنت لأنك لا تحب شرب البيرة اليس كذلك ؟ يا لك من ولد عاقل إنني معجبة بك صدقني فليس مهما أن تشرب البيرة لكي تصبح رجلا ، كما يفعل الاولاد الآخرين .. تعال ، اجلس إلى جواري وساصنع لك كوبا من الشاي المتقن الذي تحبه .. ربما شاركتك في احتسائه إنه بالفعل لذيذ .. لذيذ جدا .. خاصة بالطريقة التي تصنعه بها .. اليس كذلك ؟

قالت عبارتها الأخيرة هذه بصوت سكبت فيه اقصى دلالها وهي ترمقه بنظرات مشبعة باشياء وأشياء جعلت الدم يسري في عروقه حارا كأنما لدغته أفعى .. تذكر تلك الليلة التي قضاها في لندن وذلك الحلم الغريب ، وألسنة الأفاعي تتراقص كأنما تلعق فحيحها المحموم .. ها هي ، أيضا تعبث ـ بلسانها كأفاعي الحلم متظاهرة باصلاح أحمر الشفاه على شفتيها ، وطرقعت بفمها بصوت كمن يتلمظ قطعـة حلـوى ، ثم ازاحـت طرف الفستان إلى أعلى الركبة بحركة بدت أنها غير مقصودة ، فكشفت عن المزيد من مفاتن جسدها المكور باغراء فوق الاريكة ..

شعر بوخزات كأبر ثلمة سرت في رأسه واصطكت ركبتاه كمن انتابته حمى وبحث عن ريقه الجاف لعله يعينه على إخراج الكلمات المتلعثمة في حلقه ، واستجمع كل قواه وحواسه لشد رجليه المغروستين في البساط اللدن ، كأنما كانت ترزح تحت ثقل اصفاد غليظة .

ونجح في تحطيم اصفاده تلك ونجا بنفسه ، مرة أخرى ، من الوقوع في الشرك الحريري ، اقفل على نفسه باب الغرفة ، وقد انهكته المقاومة ، وآثارها لا تزال تلسعه بسياط من نار..

قضى طارق ليلته تلك حبيسا في غرفته لا يبرحها ، فقد فضل أن يخلو إلى نفسه بعد مرور تلك العاصفة ، وانتابه شعور غريب بالطمأنينة واحس براحة نفسية طاغية ملكت عليه مشاعره واستعاد ثقته بنفسه تلك الثقة التي اعتز بها كثيرا ، وهو يذكر ما حدث قبل قليل .. نعم .. فما زال يملك القدرة الفائقة على الصمود أمام امثال تلك العواصف الهوجاء ، وشعر بان لا خوف عليه بعد ذلك من التردي في متاهاتها الخطرة ورياحها المحملة بالغبار الاسود.!

.. ولكن ، ماذا بعد .. سؤال جاد طرحه على نفسه ، وكأنما ينتظر صوت ضميره ينطق بالاجابة الشافية .

ما حدث قد حدث والحمد لله ها أنت قد خرجت من التجربة اصلب عودا مما كنت تظن ولكن .. ماذا بعد ؟! هل يمكنك الاستمرار مع هذه الاسرة بعد كل ما حدث ؟ وهل ترضى بذلك حسنا .. رويدك .. ماذا حدث ..؟! فعلا ماذا حدث ؟! ألا يكون كل ذلك مجرد تخيلات واوهام اوحاها لك عقلك الباطن . بل لعلها ـ امنية ـ دفينة كانت تراودك في الاحلام ، ثم طفت على السطح عند مشاهدة المسز كلارك وهي مضطجعة فوق الاريكة في ذلك الوضع المثير الذي اثار كوامن الكبت فيك فخيلت لك اوهامك أنها إنما تعمدت ذلك لايقاعك في شباكها ..؟! لا .. لا ليس معقولا أن تقدم على مثل تلك التصرفات الصبيانية وهي في مثل سن والدتك !!

ولكن .. ؟! لم تهدج صوتها وانتابها الارتباك وهي تدعوك للجلوس إلى جوارها .. ثم .. تلك الحركات الغريبة التي يعرف مغزاها والتي كانت أشبه بالحركات التي كانت تقوم بها ممثلات الاغراء عندما يردن الايقاع بالفريسة .. ربما .. اوه على كل سأرى .. ولكل حادث حديث ، فها هو موعد الدراسة قد اقترب وعليك أن تهيء نفسك لذلك وتصرف عن ذهنك امثال هذه الترهات .

ورضي بهذه النتيجة من الحوار مع نفسه ، وسحب الدثار ليغطي به رأسه هربا من تتابع افكاره ، وأخذ يتمتع ببعض الادعية التي تعود على ذكرها قبيل النوم ، كما تعود وراح في سبات عميق .



(٥)

كان اليوم الأول من الدراسة مشحونا بالاثارة والقلق . ها هو طارق يأخذ مكانه في مدرج الكلية . ويستمع بكل حواسه إلى كلمات الاستاذ المحاضر يلوكها بلكنة امريكية وجد صعوبة كبيرة في محاولة استيعابها . ولكنه لم يلبث ان استعاد ثقته بنفسه وهو يتذكر ما قاله له احد اصدقائه عن تجربة أول محاضرة وأنه لن يلبث بعد بضعة أيام أن ينسجم مع جو الدراسة ويكتشف أن لا مبرر لمخاوفه تلك . وانتهت أول محاضرة وبدأ معها طارق حياة جديدة ..

حاول منذ اليوم الأول ، التعرف على زملائه من الطلبة السعوديين ، عرف منهم حتى الان سبعة زملاء .. بعضهم سبقه إلى هنا منذ سنتين أو ثلاثة وبعضهم مستجد مثله ، ووجد نفسه في تألف سريع معهم ، كيف لا ، وهو يشم رائحة الوطن الحبيب في تعابير وقسمات وجه كل منهم .. شعر أنه نقل معه قطعة غالية من بلاده .. وان عليه أن يتعهدها بالسقي والرعاية .. عرف عنهم الكثير ، ثلاثة منهم : صالح واحمد وفهد يتقاسمون شقة واحدة على مقربة من الجامعة ، يبدو عليهم الانسجام التام والتآلف الكبير .. حسن يقيم بمفرده مع احدى الاسر الامريكية وهو سعيد بحياته هذه مع زوجين مسنيين،كانا يعتبرانه بمثابة الابن ، وقد مضى عليه ثلاث سنوات لم تصادفه معهما اي مشاكل ،

أما حمدْ وعبد الكريم فهما من الزملاء المستجدين ، وقد عثرا على ـ سكن مشترك قرب الجامعة ولكنه كان يلتهم نصف مكافأتهما الدراسية ، وما يتبقى لهما بعد ذلك لا يكاد يفي بمستلزمات حياتهما اليومية في هذه المدينة الفاحشة الغلاء ، وقد أخبراه انهما اضطرا لطلب العون المالي من ذويهما في المملكة للتغلب على هذا العجز ..

وتذكر وضعه هو مع آل كلارك : ترى لو فكر في ترك المنزل والسكن بمفرده ، هل يستطيع تدبيره بالمكافأة المحدودة المقررة له ..؟! وطرد عن ذهنه فكرة اللجوء إلى والده لطلب العون كما فعل حمد وعبد الكريم ، وانما عليه أن يعتمد على نفسه ويكيف حياته وفقا لما كان متاحا له من امكانيات . لذلك فان اقامته لدى اسرة آل كلارك توفر له مزايا عديدة ربما يحسده عليها زملاؤه ، فالستون دولارا التي يدفعها كل شهر لا تمثل سوى حوالي الثلث من مكافأته ، وما يتبقى له بعد ذلك يكفيه لتغطية نفقات معيشته وتنقلاته ..

وافترقوا ، بعد تعارف حميم ، على لقاء في اليوم التالي ، وكل يوم ، في مقصف الكلية ، كما وعد الثلاثي المرح صالح واحمد وفهد المجموعة بدعوتهم إلى حفل تعارف في شقتهم في عطلة نهاية الاسبوع .. مؤملينهم بوجبة (سليق) شهية من اتقان المعلم أحمد ..

عاد طارق إلى المنزل وهو يسير بخطى وئيدة بعد نزوله من عربة الباص وقد غمره شعور عميق بالتفاؤل والثقة في مسيرته الجديدة ، ووطد العزم على الا يفسد عليه هذا الشعور ، باي اوهام او ترهات أخرى . ودلف إلى المنزل محييا السيدة كلارك التي يبدو أنها كانت منهمكة في إعداد وجبة العشاء ، بينما كانت كاتي تتلهى بتنظيف دراجتها النارية على عتبة الباب ..

ـ اهلا طارق .. هل سارت الأمور على ما يرام ؟

ـ شكرا ـ مسز كلارك ـ كل شيء على ما يرام ، جميل أن نبدأ هكذا بداية !

ـ حسنا حسنا .. إني لسعيدة أن أسمع ذلك . لقد اعددت اليوم وجبة دسمة لذيذة ، فلدينا الليلة السيد تالمان وزوجته سيشاركاننا طعام العشاء .. هيا هيء نفسك فلن تمضي بضع دقائق الا ويقرع الجرس ..

استبدل ملابسه بسرعة وحاول أن يظهر بمظهر لائق أمام ضيوف ربة الدار الذين كانوا قد وصلوا منذ لحظات على ما يبدو ..

كان السيد تالمان شابا في حوالي الاربعين ، من ذلك الصنف من الرجال الذي يفرض عليك ان تعجب به وربما تحبه .. طويل القامة أنيق الملبس ، تغطي رأسه كتلة كثة من الشعر الاسود ، المجعد اضفت عليه ملامح شرقية جذابة .. ومنذ وصوله أضفى على جو المنزل مرحه الصاخب الذي سعدت به السيدة كلارك أيما سعادة ، كما كانت كاتي تجلس إلى جواره على البساط كعادتها متكئة بمنكبيها على ركبته ، وهي تضحك بملء صوتها اثر كل دعابة او نكتة يرويها . في حين أخذت زوجته تتشاغل عنه بالنظر إلى برامج التلفاز غير عابئة بما يدور حولها .! كانت سيدة تكاد تكون في مثل عمر زوجها إن لم تكن تكبره ، هكذا يبدو عليها ، ولكن ربما لا .. هكذا السيدات الامريكيات يبدون أكبر من حقيقة عمرهن .. ربما كان ذلك نتيجة لمشاركة المرأة الرجل في العمل وانهماكها في خدمة المنزل بعد عودتها من العمل . ثم اضطرارها إلى مسايرة زوجها في قضاء السهرة لدى بعض الاصدقاء أو مشاهدة إحدى المسرحيات أو الذهاب إلى السينما .. فالرجل ، وخاصة مثل السيد تالمان ذو حيوية غريبة يصعب أن تجاريه فيها امرأة مثل السيدة تالمان ..! يا لها من امرأة تعسه ..! هكذا بدت لطارق .

حان موعد تناول طعام العشاء ، وبالفعل كانت السيدة كلارك قد أعدت وجبة ممتازة متنوعة الأطباق ، على غير المعتاد ، على الأقل لم يكن هناك حساء الطماطم الذي عافته نفسه منذ أول يوم .. وأخذ الجميع يلتهمون الأطباق بلذة ونهم ويجرعون الكؤوس الواحد تلو الآخر ، وقد توردت خدودهم ، وسال العرق على جباههم رغم برودة الطقس ، بينما كان السيد تالمان يسيطر بحديثه ونكاته الشيقة على جو المائدة ، في حين بدى الضيق على زوجته وهي ترمقه بين حين واخر ـ زاجرة كلما بدرت منه دعابة غير لائقة أو نكته سمجة تخدش شعورها ..!!

لم يكن طارق يدرك تماما ما كان يدور حوله ، ولم يستطع تفسيرا له ..! فعلى الرغم من جو المرح والسعادة الذي كان يخيم على الجميع إلا أنه وجد نفسه غريبا عن هذا الجو ، ولم يفلح في اخفاء حرجه وضيقه الشديد ، واحس بانفاسه تكاد تختنق بينما تبادرت إلى أنفه رائحة السائل الذي تجرعوه تختلط بقهقهاتهم الصاخبة ، وتصبب العرق من جبينه .. وتنفس الصعداء عندما انتهت الوليمة ، وقام الجميع من على المائدة لاحتساء القهوة او مزيد من الخمر ، بينما اخذت كاتي تعزف على البيانو بلحن معروف صاخب من موسيقى الجاز اثار الحماس للرقص في السيد تالمان الذي سارع إلى اخذ يد السيدة كلارك وأخذ يدور بها في حركات راقصة عنيفة تدل على براعته في الرقص ، بينما ازداد حماس كاتي فأخذت تضاعف من قوة عزفها على البيانو تصاحبها في ذلك السيدة تالمان بتصفيق باهت من يديها لخلق الايقاع اللازم ، كأنما تنفي عن نفسها تهمة البرود واللامبالاة ، وخشية الا تفسد جو السهرة على زوجها ، فتلقي منه فيما بعد التقريع الشديد ، وتعطيه العذر للخروج بمفرده ، ما

زال أن ذلك يضايقهـا ، كما كان يردد دائما بلهجـة لا تخلـو من التهـديد المبطن ..!

التفتت السيدة كلارك إلى طارق تحثه على الرقص مع السيدة تالمان .. وفوجىء بالعرض بينما كانت السيدة تالمان تتابع تصفيقها وهي ترمقه مشجعة .. ولم يعرف كيف يتصرف في مثل هذه الحالة ؟! وتبلل جبينه بالعرق عندما انقذته كاتي قائلة :

ـ هل لكم ان تكفوا شركم من هذا الولد العاقل .. أنه لا يحب الرقص .. لا يحب الشرب .. لا يحب التدخين .. لا أدري في الواقع ماذا يحب في هذه الدنيا ..؟! على كل تلك هي مشكلته الخاصة .. لا تزعل طارق إنني امزح .. أنسى ذلك ..

شعر طارق بمزيد من الضيق ، ففضل الانسحاب إلى غرفته تلافيا لمزيد من الاحراج ، واصوات الموسيقى الصاخبة تتناهى إلى مسمعه كأنها طرقات حداد مزعج في هزيع الليل ..!

هزيده بحركة خفيفة محييا وواصـــل ارتقـاء السلم متجها إلى غرفته وهو يتنفس الصعداء ، وخفتت الأصوات الصاخبة عندما اغلق باب غرفته وانسل إلى حوض البانيو يملأه بالماء البارد ـ كعادته ـ يغسل به همومه ومشاكله ..!!

عاد إليه من جديد احساسه بالراحة والطمأنينة وهو يؤدي صلاة العشاء بتؤدة وخشوع على السجادة الصغيرة ، وصورة الكعبة المشرفة تتماثل امـام



عينيه ورائحة (الحجر الاسود) تعبق في جوارحه لتكتمل تلك الصورة الرائعة للحياة الاخرى .. بعيدا عن الأجواء المحمومة التي كانت لا تزال اصداؤها تعربد في الطابق السفلي ..!

● ● ●

مضى الأسبوع الأول في الكلية على غير ما كان يتوقع طارق . لم تصادفه اية مشاكل أو عقبات ذات أهمية ، المحاضرات سهلة الاستيعاب ، التعاون يسود الجميع ، اساتذة وطلابا ، كان في الواقع يتشوق للعودة إلى الكلية حيث يجد نفسه في الجو الذي كان يحلم به .. وزملاؤه من الطلبة السعوديين يشدون أزره ، ويقدمون له المشورة والنصح ، ثمرة تجاربهم في السنوات الماضية .

وحصلت عطلة نهاية الأسبوع بمزيد من التشوق والترقب لحضور حفل التعارف الذي كان قد وعد به الثلاثي المرح صالح وأحمد وفهد ، واكلة (السليق) التي سيعدها المعلم أحمد ..

قضى الجميع تلك الليلة في مرح وسعادة متفجرة .. ابدع فيها أحمد باتقان أكلة (السليق) الشهية ، وشارك فيها فهد بنغمات عوده وألحانه السعودية المعروفة ، بينما راح الجميع يرددون معه كلمات الاغاني الشائعة اذ ذاك .. وترددت في أرجاء الشقة أصوات سعادتهم الغامرة كأنما تطرد اشباح الغربة والملل من نفوسهم ، حتى افاقوا على دقات الساعة تعلن منتصف الليل ، وتؤذن بنهاية السهرة عند ذلك الحد .

عاد طارق إلى المنزل وقد غمرته سعادة عذبة ، واصداء عزف العود لا تزال تتردد في اذنه ، والمجموعة تردد : «على العقيق اجتمعنا ، حنا وسود العيون..»

وتذكر سهام وعينيها السوداوين .. ترى ماذا تصنع الان ؟ وابتسم لنفسه وهو يخرج آهة محملة بمزيج من تلك المشاعر المتضاربة ..! لماذا تخطر على باله سهام وهو بعيد عنها الان ؟! الم يكن إلى جوارها ليل نهار ؟! كان تفكيره بها اذ ذاك ، لا يتعدى تفكيره في أحد اصدقائه أو اقربائه المقربين إلى نفسه .. وها هو الان يعذب نفسه بالتفكير فيها ، كأنما شعر بمدى الفراغ الذي طرأ عليه بعد فراقها ..! ولكن .. اليس هذا هو ايضا شعوره تجاه والديه واخوته واصدقائه ..؟! ربما كان ذلك صحيحا إلى حد ما ، ولكن سهام شيء آخر ! كان تفكيره بها يبعث في نفسه احساسا بالحزن ـ حزن من نوع آخر ، يعتصر فؤاده ، لم يدرك كنهه في البداية ، وازداد احساسه هذا يوما بعد يوم ، حتى ادرك انه يحب سهام ، ولكن ما فائدة ذلك الان وهو بعيد عنها ، لا يستطيع مكاشفتها بمشاعره هذه ؟ لم لا يكتب إليها رسالة مسهبة يصارحها بكل شيء .. يناجيها .. يبث إليها اشجانه وافكاره ويعبر لها عن مشاعره الجياشة ؟ ألا يفعل المحبون ذلك ..؟

.. لا .. لا .. سيكون هذا سخفا منه ، ستضحك منه سهام بكل تأكيد ، وهي تقرأ ـ عبارات الغرام الملتهبة وهي تتساءل : «اين كانت كل هذه العواطف من قبل ؟! هل كان عليه أن يغترب بعيدا عنها كي يشعر بحبه لها؟! » هل كان عليه أن ...لاريب انها ستعتبر كل هذا مجرد هلوسة مغترب لن يلبث ان يفيق مع مرور الأيام ويتعايش مع حياته الجديدة .. على كل فليؤجل ذلك الان على الاقل ، وسيرى مع الأيام حقيقة مشاعره ومدى صدق عواطفه تلك ..

وتناهت إلى سمعه ، وهو يخطو إلى المنزل ، أصوات صاخبة تنبعث من الصالون فتبدد سكون ذلك الليل الهادىء .

كانت كاتي تقيم حفلا راقصا دعت إليه كثيرا من اصدقائها ، ويبدو أن الخمر قد لعبت برؤوس الحاضرين فاختلطت اصواتهم العابثة بصدى الموسيقى الصاخبة ، والمكان يعبق برائحة الدخان والعرق المتصبب من الأجساد شبه العارية التي كانت تهتز كثور هائج في حلبة المصارعة .

في أحد أركان الصالون شاهد مجموعة من أصدقاء وصديقات كاتي وهم يفترشون الارض في وضع بذيء ، وهم يتبادلون القبلات الماجنة دون حياء أو خجل ..

اسرع يرتقي درجات السلم ، هاربا من هذا الجحيم ، إلى غرفته يسكن إليها أو يحتمي بها ! وعلى درجات السلم كانت هناك مجموعة أخرى في وضع يبعث على الاشمئزاز ..! تخطاهم دون أن يعيروه أي اهتمام ، وقاوم رغبة شديدة في التقيؤ ، ودلف إلى غرفته تتبعه ضحكاتهم الساخرة .. وادار مفتاح النور .. و .. صعقه المنظر !!

كانا ، عاريين تماما ، فوق سريره وهما في وضع فاضح فجر الدماء في عروقه .. ولم يعبئا بدخوله المفاجيء في أول الأمر ، وتابعا مجونهما كقطط تعوي في أزقة حي قذر ! واستدار خارجا من غرفته بعدما صعقه المنظر : كانت السيدة كلارك مع صديقها السيد تالمان وهما في نشوة عارمة غير عابئين بما يدور في الطابق السفلي .. وشهقت السيدة كلارك عندما افاقت على المشهد .. ولمحت طارق يهم بالخروج من الغرفة .. وشدت إليها الدثار تحاول ستر جسدها العاري ، بينما ادار السيد تالمان وجهه إلى الحائط ، كأن الامر لا يعنيه في شيء !!

ـ « طارق : إنك رجل علي أي حال ويمكنك تقدير مثل هذه الأمور .. الحقيقة إنني اسفة أن اضطرت إلى استعارة غرفتك هذه الليلة ، فكما ترى الأولاد يملأون أرجاء البيت» ..

لم يكن يبدو عليها ، عندما نطقت بتلك العبارة ، أي شعور بالخجل أو الحياء !! كان اعتذارها له لمجرد كونها اضطرت إلى استعارة غرفته وسريره ..! بل واوجدت لنفسها المبرر لهذا التصرف ..! « إنك رجل عاقل علي أي حال ويمكنك تقدير مثل هذه الأمور ..» يا للوقاحة ! وهل لأنه رجل عليه أن يتقبل ذلك ؟! بأي منطق ، وبأي مفهوم هذا الذي تقوله ؟!

وأدرك حقيقة موقفه ، أنه ضيف غريب على هذا المنزل ، وليس من حقه أن يكون وصيا على أحد من أهله ، لكم دينكم ولي دين» أخذ يرددها وهو يصفق الباب الخارجي للمنزل بينما كان يقاوم رغبة شديدة في التقيؤ. وسار مسرعا كأنما يهرب من ذلك المشهد ، حتى صادفته عربة إجرة نقلته إلى احد الفنادق داخل المدينة حيث قضى ليلته تلك .

في صباح اليوم التالي ، قص على اصدقائه ما حدث . وأخبرهم بتصميمه على عدم العودة إلى ذلك المنزل ، وطلب اليهم مساعدته في البحث عن سكن آخر ، فعرض عليه زميلاه حمد وعبد الكريم أن يقاسمهما الشقة التي يقيمان فيها إلى أن يعثر على السكن المطلوب . ورحب طارق بالعرض ، وفي المساء أحضر متاعه من منزل كلارك دون أن يتفوه بكلمة ، واكتفى بأن وضع على المقعد مبلغ الستين دولارا المتفق عليها ، وغادر المنزل إلى غير عودة .

(٦)

شعر طارق بانه وجد صورة من وطنه الحبيب في الشقة التي تقاسمها مع زميليه حمد وعبد الكريم ، وانزاح عن كاهله كابوس ثقيل كان يجثم على صدره طوال فترة اقامته السابقة لدى اسرة كلارك وخاصة في الأسابيع الأخيرة .. وما مر به من احداث أرهقت أعصابه .

كان صديقاه قد عرضا عليه الاستمرار في الاقامة معهما على ان يتم البحث عن شقة أخرى تتسع للجميع ورحب بالفكرة ، وانتقل الثلاثة إلى الشقة الجديدة حيث سارت الحياة هادئة رتيبة لا يشوبها شائب ، إلى أن كان ذات يوم ..

فقد اتفق بعض زملاء طارق على إقامة حفلة ساهرة في شقة الثلاثي صالح وأحمد وفهد بمناسبة عطلة عيد الميلاد التي تستمر اسبوعين ، وكان الجميع قد فرغوا من اداء امتحان القسم الأول من الفصل الدراسي الجديد ، واعترت المجموعة رغبة جائعة في قضاء بعض الوقت في الترفيه واللهو بعد تلك الفترة الجادة من العمل ، واستعدادا للفصل الدراسي القادم ، وتعاون الجميع على اقتسام تكاليف السهرة وتوزيع الادوار والاعداد اللازم لها ..

وفي الليلة المحددة ، ذهب طارق مع زميليه حمد وعبد الكريم إلى مكان السهرة ، وقد تأنق الجميع ، كما اوصاهم بذلك بقية الزملاء ، حيث ثمة مفاجأة سارة تنتظرهم ..!

تطلع طارق إلى نفسه بالمرآة الموجودة في المصعد ، يتفقد اناقته قبل الدخول إلى الشقة . ولأول مرة يشعر بمثل هذا الاهتمام باناقته واتساق هندامه .. وغمز زميله حمد بعينه قائلا :

ـ لا تخف .. ستكون ملك السهرة وأنت في مثل هذه الاناقة ، وستتهافت عليك الحسناوات يطلبن أن توليهن شرف مراقصتك ..!

ـ أي حسناوات تعني يا حمد ..؟

ـ أوه لا تخف .. ستعرف كل شيء عما قريب ..

واغرق صديقاه في الضحك بصورة مريبة بعثت القلق والحيرة في نفسه ، وكان باب الشقة مشرعا على مصراعيه ، وقد انبعثت منها اصوات الموسيقى الصاخبة ، تختلط بضحكات نشوى اضفت على الجو طابعا غريبا لم يعهده طارق في مثل هذه السهرات لدى اصدقائه ..!

تعثر وهو يخطو إلى داخل الشقة وسط كل ذلك الضجيج الصاخب ، وأخذ زملاؤه يقومون بتعريفه على بعض الحضور ممن لم يسبق له معرفتهم من قبل .. كان ثمة وجوه غريبة من جنسيات مختلفة ، وبعض الامريكيين .. من كلا الجنسين . كانت الفتيات يرتدين ملابس السهرة الأنيقة وهن يتبادلن الاحاديث مع زملائه ، وبعض الغرباء الذين لم يسبق معرفتهم من قبل .. وشاهد في يد كل منهم كأسا من الخمر على اختلاف اصنافه وألوانه .. تلك التي لم يكن يميز انواعها واسمائها .. ولم يسبق له تذوقها ، أو حتى محاولة

تذوقها من قبل ..

وتصبب العرق من جبينه وهو يداري الاحراج الذي انتابه .. وتذكر تلك الليلة (اللعينة) في منزل آل كلارك ، وصوت الموسيقى الصاخبة ، ورائحة الخمر تعبق في الصالة فتزداد معها ضحكات وضجيج الحاضرين ..

اقترب منه زميله عبد الكريم وقد لاحظ مدى ارتباكه وعرف مدى وقع المفاجأة عليه ، فحاول مساعدته للتغلب على هذا الموقف ، وبين ضحكات الآخرين ومزحهم المتفجر سعادة ونشوة، قرر طارق بينه وبين نفسه ألا يفسد على الآخرين ـ وعلى نفسه أيضا ـ تلك السهرة ، وتغلب على ارتباكه وتناول كأسا من شراب الكوكاكولا أخذ يرشفه بلذة يرطب به جفاف حلقه .. أو ارتباكه ! واكتمل شمل المدعوين كما يبدو ، اذ وقف صالح في وسط الصالة وعن يمينه فهد وعن يساره فتاة شقراء بدت في كامل اناقتها ، وقد وضعت يدها في يد فهد وهي ترنو إليه بحنان ووله ..

صفق صالح بيديه بحركة مسرحية فساد الهدوء وأخذ يتكلم :

ـ « اصدقائي الأعزاء : في هذه الليلة السعيدة يسرني أن أزف إليكم هذا النبأ السار .. ربما كانت هذه مفاجأة لبعضكم ولكن معذرة .. تلك هي رغبة اخي وصديقي فهد والعزيزة باتريشيا .. انها مناسبة سعيدة وسارة حقا أن أعلن لكم الليلة نبأ خطوبة فهد وباتريشيا .. فلنشرب معا في صحة العروسين العزيزين ..

وساد الهرج أرجاء الصالة ، وصفق الجميع لتلك المفاجأة ، وهم يتبادلون شرب (الانخاب) في صحة الخطيبين ، وعلا صوت الموسيقى الراقصة وافتتح الخطيبان حفل الرقص برقصة (تانجو) حالمة ولم تلبث الصالة أن امتلأت



بالراقصين والراقصات .. وانتهت موسيقى (التانجو) فتلتها موسيقى (الروك) الصاخبة ، فاخذ الجميع يرقصونها بخفة ومرح ، كأنما يلقون عن كواهلهم المرهقة متاعب الحياة وهمومها .

وقف طارق بعيدا إلى جانب الشرفة يتلذذ بنسمات الهواء الباردة وهو يتطلع إلى الأضواء الملونة عبر الشارع الطويل .. فشده المنظر الرائع وتملكته سعادة غامرة .. وأخذ يتسلى بالنظر إلى المارة وهم يتسكعون فوق ارصفة الشارع ، وقد انطلقت أصوات البعض منهم بأغاني عيد الميلاد بطريقة عابثة تصحبها قهقهاتهم عالية متحررة فتبدد هدوء ذلك الليل الجميل ..

قطع عليه تأملاته تلك صوت رقيق اهتز له كمن مسه تيار كهربائي - حينما فاجأته :

- هالو .. ! يبدو أنك شاعر ملهم .. أو عاشق موله ..!
- عفوا ..! ماذا تعـ .. أقصد كلا .. إنما كنت ...
- حسنا ، إني آسفه إن قطعت عليك هذه الخلوة الجميلة .. ولكن الا تود مشاركتنا في الرقص !

.. هيا ، فالليلة رائعة والجميع سعداء ، وليس هذا وقت الشعر والالهام ..

- أبدا .. أبدا .. إنما كنت .. أعني في الواقع أن ..
- لا عليك ، فيمكنك الان على الأقل ، الاحتفاظ بسرك الجميل ، ولكن هيا .. تعال نرقص .. واخذت بيده دون أن تنتظر أي رد منه ، كأنما كانت لا تتوقع غير ذلك ، وسار معها . كطفل صغير ، تصحبه أمه إلى المدرسة في أول يوم من أيام الدراسة .

.. **برافوا برافو طارق .. هيا أرنا شطارتك ..**

وتعثر طارق ، وهو يستمع إلى تلك الكلمات التشجيعية من بعض زملائه ، وتملك اعصابه للتغلب على هذا الموقف الحرج ، وأخذ يجاري رفيقته بحركاتها الرشيقة بينما رسم على شفتيه ابتسامة شاحبة بدت كمن يحاول مداراة صرخة ألم .. لدى طبيب الاسنان ..!

.. إسمي ؟ ليزا .. او اليزابيت .. وانت ..؟

.. طارق ..

.. طارق ؟ إنه اسم جميل .. يذكرني بجبل طارق .. أليس هو إسم القائد العربي الذي فتح الاندلس ..؟

بلى .. إنه هو ..

لم يسبق لي أن شاهدتك من قبل هنا .. هل أنت مستجد ؟

نعم .. لم احضر سوى هذا العام .. وأين تقيم ؟

مع زميلي حمد وعبد الكريم .. في شارع بدفورد ، رقم **٣٤٥** .

أنت محظوظ حقا .. فأنا اقيم مع أسرتي في ضاحية جون بارك خارج لوس انجلوس ..

لا تتصور كم هو مزعج أن تضطر للاقامة مع اسرتك .

عفوا .. ! ماذا تقولين ؟ إنني لم استوعب تماما ما تعنيه !؟

دعك من هذا الان .. وهيا بنا لنستمتع بسهرتنا الحلوة هذه .

وشدت على يديه تحثه على مسايرتها في حركات الرقص العنيفة ، وشدته الدوامة النشوى ،ونسى نفسه وانطلق من عقاله مقتحما عالمه الجديد ..

.. ولأول مرة في حياته يتذوق كأس الخمر الذي قدمتـه له ليزا رفيقـة السهرة ، تلك الشيطانة الخفيفة الظل ، التي استطاعت بخبرتهـا وتحررهـا وجرأتها العجيبة ـ جذبه إليها واقتلاعه من عزلته وانطوائه .. ومثله .. ومبادئه .. و .. ناولته الكأس الثاني مشجعة : انها مجرد بيرة خفيفة لا تسكر ولا تتعب .. إنها كالماء .. هيا اشرب ولنعد للرقص .. اسرع .. وابتلع الكأس الثاني والثالث، واعترته نشوة غريبة فأخذ يرقص بكل ما أوتى من قوة وعنف وسط ضحكات اصدقائه وغمزاتهم ذات المغزى الخبيث .. ولكنه لم يعبأ بهم .. كان يشعر انه في عالم آخر .. وانه أمام منهل عذب يجب أن يعب منه حتى النهاية .. وأغمض عينيه عن الحقيقة التي كانت تتراىء له بين فترة صحو وأخرى في قاع ذلك المنهل فتعكر صفوه ، وتفسد عليه نشوته الغامرة تلك .. و .. سقط في قاع البئر .. دون وعي منه ..

استيقظ في اليوم التالي قبيل الظهر ، وقد علا وجهه الاصفـرار من أثـر الارهاق والسهر وأحس بصداع شديد لم يعهده من قبل . وكانت وخـزات ضميره بعد الصحو ، تزيد من الآلام التي عصفت بجسده وحواسه .. وأخذ يتمتم بينه وبين نفسه : « لا حول ولا قوة الا بالله » ..

ملأ حوض البانيو بالماء الدافىء واستلقى فيه ، في شبـه اغفـاءة .، وهـو يستعرض في مخيلته أحداث سهرة البارحة : اول سيجارة ، اول كأس ، أول رقصـة ، أول .. أول .. أول .. يا للفظاعـة ..! كل هذا حدث في ليلــة واحدة ..؟! كيف ..؟! كيف ..؟! وضرب بيده على حافة الحوض وهو يردد : ـ كيف حدث هذا ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ لماذا يا طارق ؟ لماذالماذا ..؟ لماذا ..؟ واجهش بالبكاء وهو يعتصر الامه ، كأنما يلقي بها في الحوض الدافيء لعلها تتسرب مع بقية القاذورات العالقة بجسده من فوهة البالوعة التي كانت تزمجر

بصوت الماء المتسرب منها كشيطان يقهقه لانتصاره ..

ادى صلاة الصبح والظهر بتؤدة وخشوع ، والدموع تترقرق في عينيه وتناول ـ المصحف الصغير ـ هذا الحارس الأمين ـ وأخذ يتلو فيه بصوت خاشع ، وهو يهتز عند كل آية من آياته الكريمة وبدأ يشعر كأنما أنزاح عن كاهله درع من الرصاص .. وصفت نفسه وانتابته سكينة بعثت في جوارحه طمأنينة حلوة ، استعذبها كمن يرشف من مورد عذب بعد طول ظمأ ..

دخل عليه زميلاه حمد وعبد الكريم وهو مستغرق في التلاوة ، ورفع عينيه يرد تحيتهما ، وشاهد في نظراتهما معان كثيرة كأنما تعرب عن دهشتهما لهذا الموقف ..

ـ ما شاء الله .. ما شاء الله .. كيف حال الشيخ طارق ؟! او مستر طارق ..؟! قالها حمد وهو يضحك مداعبا طارق بينما استغرق عبد الكريم في الضحك لهذه المفارقة الطريفة .. فشتان ما بين اليوم والامس ...!

ـ كفى .. كفى .. اعرف ما تعنونه ، لقد حدث ما حدث ، وكانت التجربة جديدة علي . لم اع تماما ما حدث ؟ إنني لا أتصور كيف حدث هذا .. كيف ..؟

وأخذ يجهش بالبكاء واعترت قسمات زميليه علامات الجد والتأثر .. وقد أدركا مدى ما يعانيه صديقهما من وخز الضمير ..

ـ هون عليك يا طارق .. كما قلت أنت ما حدث قد حدث .. ولات ساعة مندم . المهم الان أن تستفيد من تلك التجربة ، وتتعظ ، ولا تدع لنفسك مجالا آخر للوقوع في مثل ذلك الخطأ ، أنت ، يا طارق ، كما نعهدك لم تخلق لمثل

ذلك .. والا هان عليك الامر كغيرك من الكثيرين الذين لا يعبأون حتى بمجرد التفكير في مدى الخطأ الذي يرتكبونه ..

واضاف عبد الكريم .

ـ في الواقع ، ربما لم يكن الذنب ذنبك . إننا نتحمل قسطا من المسئولية .. فقد كانت السهرة بكل مغرياتها واثارتها كفيلة بدفعك إلى التخلي عن مثلك ومبادئك في لحظة ضعف كانت أقوى من احتمالك وخاصة أنها ربما كانت أول تجربة لك .. فلم تستطع مقاومة اغرائها ..

اجاب طارق :

ـ ربما .. ولكن لم كانت تلك السهرة بهذا الشكل الماجن ؟! لقد كانت سهراتنا دائما مع الاصدقاء ، سهرات بريئة ، ولا تشوبها شائبة .. كنا سعداء بها .. فلم كان هذا التغيير ..؟!

اجاب أحمد :

إنها على أي حال ، مناسبة خاصة للاحتفال باعلان خطوبة صديقنا فهد .. ولا تنس أننا هنا في امريكا و..

ـ ولكن لماذا يتزوج صديقنا فهد هذه الامريكية الغريبة ؟ الم يفكر في النتائج ؟! الا يشعر بمدى الفوارق الشاسعة التي بيننا وبين هذه البيئة الغربية ؟ الم يفكر بمصير ابنائه ؟ الم ..

ـ اوه .. طارق .. ما عليك من كل هذا .. لقد اختار فهد طريقه ، وهو يعي تماما ما هو مقدم عليه ، وتلك علي أي حال مشكلته هو ، فلا تشغل ذهنك بمثل هذه الامور ، فلسنا أوصياء على أحد .

ـ نعم ، للأسف ، هذا صحيح .. ليكن الله في عونه .

ـ والان هيا بنا نتناول طعام الغداء في احد المطاعم القريبة .. فاليوم هنا يوم عيد ، والمطاعم والمقاهي تغص بالرواد الباحثين عن الترفيه .. هيا فقد تأخرنا ..

كان المطعم يغص برواده الذين انتشوا بهذه المناسبة ، وسادهم جو من المرح والتآلف ، كأنما يتابعون سهرة ليلة عيد الميلاد السابقة ، بضجيجها وعبثها الماجن .. وفجأة .. أحس طارق بيد ناعمة تربت على كتفه وتداعب خصلات شعره مداعبة ..

ـ هالو طارق .. ! يا للصدفة السعيدة ..!

ـ وسرى تيار كهربائي صاعق تخلل كل حواسه وانتابته رعشة غامضة تعكس مدى الصراع الذي أخذ يتفاعل في نفسه المضطربة .

ـ (يا إلهي ..! ها هي الشيطانة مرة أخرى ..!) قالها بينه وبين نفسه ، وتغلب على ارتباكه هذا قائلا :

ـ من .. ؟! ليزا ! اهلا .. ماذا جاء بك إلى هنا ..؟!

نفس الشيطان الذي قذف بك إلى هنا ..

وربتت بحركة على معدتها ، وهي تسحب مقعدا بجواره بعفوية أذهلته ، والتقطت من طبقه بعض قطع من البطاطس المحمرة وهي تتابع ثرثرتها .

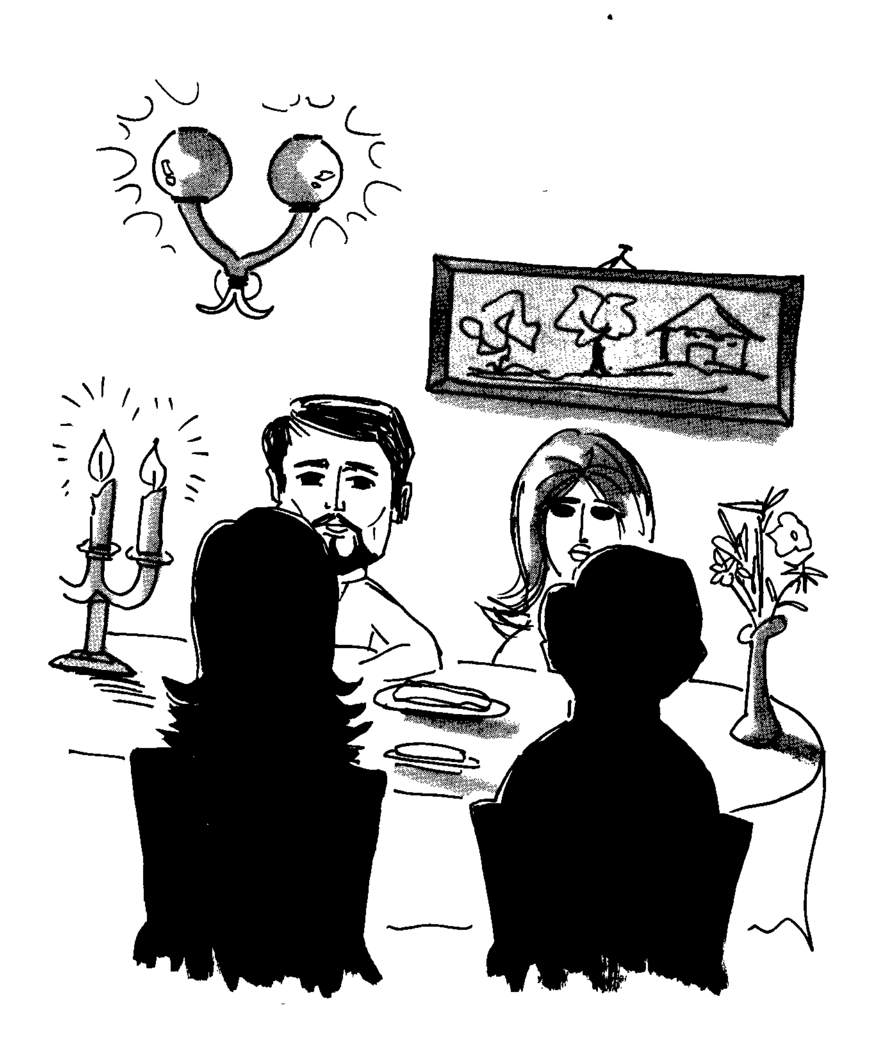
.. اوه طارق كم كانت سهرتنا البارحة رائعة .! اليس كذلك ؟ بيني وبينك ، قالت ذلك ، وهي تقترب بوجهها منه بحيث داعبت خصلات شعرها النافر ، المضمخ بأريج الانوثة المتحدية ، وجنتيه المحمرتين خجلا .. بينيوبينك

.. لقد حسدتني صديقاتي عليك ، الجميع يقولون عني انني محظوظة .. وفعلا إنني كذلك .. ولكن هيه .. انتبه .. لا يعني ذلك أن يركبك الغرور ، والا حطمت رأسك الجميل هذا بقبلة قاتلة .. كهذه ..

وأخذت رأسه بين يديها بحركة سريعة مفاجئة ، وطبعت قبلة عنيفة على شفتيه ، غير عابئة بنظرات اصدقائه ، أو حتى الضيق الذي بدا على وجهه ، وهو يحاول التغلب على ارتباكه ، واتخاذ موقف صارم يوقف به تلك المهزلة السخيفة .. ولكن لم يفلح في اتخاذ اي موقف ، واستسلم بضعف لمداعبتها من جديد .. وقد عاودته ذكريات البارحة ، وسرت في انفه رائحة انفاسها الملتهبة لتذكره بكل شيء .. وتسحبه ، رويدا رويدا ، عن مثله ومبادئه التي كان هذا الصبح فقط ، يعض اصابع الندم تألما لما اعتراها من ضعف املته اجواء تلك الليلة المحمومة .. لتلقي به في الدوامة .. من جديد ..!

تكررت لقاءاته بها بعد ذلك . لم يعد يقاوم . لم يعد يفكر في أي شيء .. عدا تلك المتعة المضطرمة التي كان ينتشي بها في كل مرة يلقاها .. كان ينظر إلى جهاز الهاتف يتوقع رنينه في كل لحظة ليسمع صوتها المغناج .. تحدد له موعدا للقاء ..

هذا الجهاز اللعين ..! كان في بداية الامر يكرهه اشد الكره ، كان رنينه في السابق يبعث في نفسه الخوف والضيق ، كان يؤرق منامه ، بل كثيرا ما كان يستيقظ في الليل على هاجس رنين الهاتف . كان في مقاومته تلك ، يضعف في كل مرة تعاود الاتصال به . رغم تصميمه على انهاء علاقته بها وكان يعرف نقطة ضعفه تلك ، ولذلك كره رنين الهاتف .. ورغم هذا ، كان يثب فرحا في كل مرة يسمع هذا الرنين .. ليلتقط السماعة وقلبه يخفق بضعف منتظرا سماع كلمتها المعهودة .. هالو طارق .. أيها الحبيب .. هل أراك اليوم ؟ وينسى كل



شيء عدا كلمة واحدة يقولها دون اي تردد : .. نعم نعم بكل تأكيد .

أما الان فرنين الهاتف يمثل ، بالنسبة له ، احلى موسيقى واعذب نغم .. كيف لا؟! وهو ينقل إليه ميعادا جديدا ، ومتعة جديدة .. ادمن عليها فلا يستطيع منها فكاكا . وسارت حياته مع ليزا هانئة سعيدة مليئة بنشوة الحب ومتعة اللقاء .. وعبث الشباب ..!

الى ان كان ذات يوم ..

دعاه صديقه فهد لقضاء السهرة في منزله بعد زواجه من خطيبته باتريشيا وطلب إليه اصطحاب ليزا معه ، فهما ـ أي ليزا وباتريشيا ـ صديقتان حميمتان أيضا ..

وكان أول مرة يزوره فيها في منزله بعد الزواج . كانت زوجة صديقه تبدو في كامل اناقتها ، وهي تغدو وتجيء في ارجاء الشقة الانيقة التي ازدانت بباقات الورد واللوحات الجميلة ، والاثاث الانيق .. كان كل شيء في المنزل يوحي بالسعادة والهناء . وكان فهد فخورا مزهوا بنظرات الاعجاب التي بدت واضحة في عيون صديقة طارق وصديقته ليزا .. وجلس الجميع إلى المائدة ، وقد حوت مختلف الاطباق العربية والغربية ، وانبعثت الموسيقى الحالمة من جهاز الحاكي ، يضفي على الجو مزيدا من البهجة والسعادة الحالمة .. وندت عن طارق تنهدة عميقة تعبر عن ارتياحه العميق لهذا الجو الذي يفوح منه اريج العاطفة الدافئة والهناء الزوجي الدافق ..

رنت إليه صديقته ليزا وهي ترمقه بحنان ، كأنما استشفت مشاعره تلك ، وتقابلت نظراتها الحالمة .. وشعر طارق باحساس مفاجيء ارتعش له قلبه ، كأنما يعرف ليزا لأول مرة وترقرقت عيناه بالدموع وقد انتابته سعادة طاغية ..

وفجأة .. لم يتمالك نفسه ، وامسك بيديها يحتضنها بحنو متفجر .. وتردد برهة قبل أن تفتر شفتاه هامسة بصوت متهدج .

ـ ليزا .. حبيبتي .. اسمحي لي بأن أعلن في هذه الليلة السعيدة ، وامام صديقينا العزيزين نبأ خطوبتنا .. أعني زواجنا .. أقصد ..

وفوجئت ليزا .. اذ لم يسبق له أن فاتحها بشيء من ذلك . وافاقت من وقع المفاجأة على اصوات الاستحسان والابتهاج من فهد وباتريشيا .

ـ برافو .. برافو ..! لقد كنا في انتظار هذه المفاجأة السارة منذ زمن طويل .. تهانينا .

ونظر إليها طارق كأنما يستشف وقع المفاجأة عليها .. وانتابتها حيرة قصيرة ، لم تلبث ان حسمتها بقبلة على وجنته ، وهي تقول :

ـ اوه .. طارق ! يا لك من ماكر لعين ؟ منذ متى ، ترى ، وانت تعد لهذه المفاجأة ؟

ـ ليزا .. اني أحبك .. أحبك .. أنت لا تعرفين مقدار حبي لك .. ولن يكتمل حبنا هذا الا بالزواج ، كما فعل فهد وباتريشيا .. اسمحي لي ان لم اكن قد استأذنتك في هذه المفاجأة ، لقد ..

ـ شكرا اذ لم تفعل .. فهكذا احبها .. أنت رائع .. يا لك من بدوي رائع ! ولو انني كنت أفضل لو اختطفتني على ظهر جواد عربي اصيل ، في ليلة مقمرة ، كفارس الاحلام ..

وضحك الجميع لتلك الدعابة ، وعلا صوت الموسيقى يصدح بلحن حالم بعث النشوة في نفوسهم فقاموا الى الرقص كفراشات رشيقة اسكرتها رائحة زهور برية تعبق بالأريج .. وانقضى الليل منسابا رقيقا كنسمات فجر ندية .. وافترقوا على لقاء آخر يحتفلون فيه بزفاف العروسين السعيدين ..

(٧)

أخذ طارق يلتهم بعينيه الدامعتين ، اسطر الرسالة التي وصلته من والده ، تحمل إليه التهنئة بنجاحه في السنة الدراسية الثانية ، وتنقل إليه عتب الاسرة لتأخره عن المجيء إليهم في العطلة الدراسية خاصة وانه لم يتمكن من السفر في العام الأول بسبب ظروفه الدراسية ، ولم يكن ذلك في الواقع ، سوى مبرر انتحله كي يبقى الى جانب ليزا ..

لم يكن قد اخبر والديه بنبأ زواجه هذا ، وكتم النبأ عن كثير من اصدقائه ، لم تكن لديه الجرأة لمصارحة والديه ، وكان يشعر في قرارة نفسه بمدى وقع المفاجأة عليهما وقسوة الصدمة التي لا بد وان تعصف بهما عند سماع النبأ ، ففضل تأجيل الامر حتى يجد الوقت المناسب ، ومضى العام الأول على زواجه ، وحلت العطلة الصيفية ، ولم يجد لديه الشجاعة الكافية للسفر الى ذويه . كان يخشى أن يكونوا قد علموا بزواجه من بعض زملائه في الجامعة ، كما كان قد خطط ، مع زوجته ، للقيام برحلة في ارجاء الولايات المتحدة ..

اعاد تلاوة الرسالة .. وعيناه تذرفان بالدمع تأثرا للمشاعر الجياشة التي عبرت عنها كلمات والده .. تناشده المجيء في هذه العطلة الصيفية ، اسوة

بزملائه الذين ملأوا بيوت اسرهم بالسعادة والبهجة .. ولـم يخف عليه مدى قلق والدته عليه وتشوقها لرؤياه ..

واتخذ قراره بالسفر ..

ـ طارق .. لقد رتبت كل شيء للرحلة وسيصحبنا ريتشارد وسوزي .. اوه ! كم أنا سعيدة .. سوف ..

ـ ليزا .. انني أسف .. أعني أننا سوف لن نتمكن من القيام بهذه الرحلة .. لقد قررت ان اسافر إلى أهلي في هذه العطلة .. أمامنا يا عزيزتي فرص أخرى كثيرة .. ربما قمنا بهذه الرحلة في عطلة الربيع .. أو ..

ـ وبدت أثار الخيبة المريرة على قسمات وجهها . وهي تتلقى هذه الصدمة . وكظمت غيظها الذي لم تفلح في اخفائه نظراتها الملتهبة ..

ـ ليزا .. إنني أسف .. أرجو أن تفهميني .. أن علي أن اسافر هذا العام .. تذكرين أنني لم اتمكن من السفر اليهم في العام الماضي بسبب . اعني أننا ..

ـ حسنا .. حسنا ـ لا داعي للبحث عن أعذار .. أنت حر ، أفعل ما تشاء ، ولكني علي اي حال غير مستعدة للبقاء وحدي هنا .. سوف اسافر مع ريتشارد وسوزي ، وربما انضم الينا باتريك ..

ـ ليزا .. ارجو أن تكوني أعقل من ذلك .

ـ وماذا تريدني أن أفعل .. هنا لوحدي ، وانـت في احضـان والـديك العزيزين ..؟؟ هه ؟

ـ لم أقل ذلك .. يمكنك أن تذهبي إلى اسرتك أثناء غيابي ، وسوف يكونوا بالتأكيد مسرورين ..

ـ ربما .. ولكن ثق أن ذلك لا يسرني أنا .. انني في حاجة ماسة إلى رحلة .. إلى تغيير الجو .. إلى الترفيه .. ألا تفكر في شعوري ؟! هل تريدني أن أفعل كنسائكم المسكينات ؟ يقعدن في بيوتهن فريسة للملل واليأس ، في انتظار عودة الزوج السعيد ! حتى إذا ما حضر قمن إليه مهللات و (طشت) الماء الدافيء في انتظار قدميه الجميلتين ، ومائدة الطعام تمتليء بالاطباق الدسمة لفتح شهية الزوج العزيز .. لا يا عزيزي .. لست أنا التي أقبل هذا ..

ـ ليزا .. ما هذا الهراء ؟!

ـ سمه ما شئت ..

ـ عفوا .. لا اقصد أن .. أعني لا داعي لكل هذه الاسطوانة .. باختصار أنا مضطر للسفر ، وارجو أن تقدري ظروفي هذه :

ـ حسنا .. أفعل ما يحلو لك ، إنني لم أمنعك ، ولكن أنت أيضا لا تستطيع وليس من حقك ، منعي من أن أفعل ما يحلو لي .. اليس كذلك ؟ ارجو أن تعي هذا جيدا . هكذا اتفقنا منذ البداية ، أو نسيت ؟

ـ حسنا حسنا .. لنكف الان عن هذه المشادة غير المجدية .. سنتدبر الامر على اي حال ..

● ● ●

وقفت به سيارة الاجرة أمام منزل الاسرة في جدة ، وقد شارفت الساعة منتصف الليل ، حمل حقيبته الصغيرة وصعد درجات السلم بحركات خفيفة حذرة ، وضغط جرس الباب وقلبه يخفق شوقا لرؤية الأهل ..

كان كل شيء يبدو كما تركه عند سفره منذ عامين .. سور المنزل وقد انهكته رطوبة البحر ، وتآكلت بعض اجزائه ، وتلك العبارة المكتوبة بقطعة فحم .. هي

هي لم تمحها الرياح او الامطار .. (يعيش الاتحاد ..) وتذكر مشاجرات اولاد الحارة وتحزبهم لنادي الاتحاد او النادي الأهلي .. وعم علي .. صاحب الدكان التي بجوار المنزل ، هو هو في (فوطته) المقلمة و (شيشة الجراك) لا تفارقه ، وحوله بعض الرفاق يتسامرون ، وقد علا صوت الراديو وهو يذيع اغان عدنية .. «يحيى عمر قال» وتذكر الأغنية وتساءل بينه وبين نفسه ماذا ترى قال هذا اليحيى عمر ؟ لم يسبق له ان فكر في حل هذا اللغز .. ولكن ما باله يشغل ذهنه الان في هذه التفاهات .!

وفتح الباب .. كانت شقيقته تقف مذهولة وهي تتطلع إليه غير مصدقة عينيها ..

ـ طارق .. طارق .. طارق جاء .. طارق جاء ..

والتقت عيناه بعيني والدته وقد غمرتها الدموع ، وتلقفته يداها وهي تعتصره بعنف وحنان .. وأخذت تلثم رأسه ووجنتيه ، بينما شقيقته تقلب البيت رأسا على عقب بصيحات الفرح ..

ـ الحمد لله على السلامة يا إبني . قالها الاب ، وهو يغالب دمعتي فرح ترقرقتا في عينيه ، واحس طارق ، وهو بين ذراعي والده برغبة شديدة في البكاء .. وبكى .. بكى كثيرا حتى اقلق والديه ، تذكر طفولته ، وهذا الصدر الحنون الذي طالما لجأ اليه يستشعر الامن والطمأنينة في حناياه .. وما اشد حاجته هذه اللحظة إلى ذلك الحنان .. الى هذا الصدر الدافيء يدفن فيه اسراره والآمه .. وشجونه !!

ـ بس يا هوه .. خلوا لنا شويه منه .. والا احنا مالنا حصة ؟ شوية على الواد ..

ورجف قلبه عند سماع صوت عادل زوج شقيقته ، اذن فهو هنا ايضا ! اي أن سهام هي أيضا هنا .. ها هي فعلا تخطو إليه متعثرة ، وقد اضطربت مشاعرها للمفاجأة ..

ـ اهلا طارق ، الحمد لله على السلامة .

ـ اهلا سهام .. كيف حالك ؟

شعر بيدها ترتجف لمصافحته لها ، وتصبب العرق من جبينه وهو يرمقها بنظرات خجلة ، كأنما يراها لأول مرة .. بدت له أجمل كثيرا مما تركها قبل عامين .. شعرها الاسود الطويل وقد ازداد غزارة . يعبث في لا مبالاة . فوق صدرها المشدود المتحفز . كأنما يهم بالقفز من وثاقه ليلتقي بصدره بعد طول فراق .. وتذكر (قبلة العنب .. يا الهي لكم نضج العنب .. وطاب ..!

● ● ●

قضى طارق أكثر من شهر مستمتعا بالاقامة مع اسرته .. كان شديد الارتباط بالاسرة منذ طفولته .. ولكنه يشعر الان بمشاعر جديدة أعمق وأقوى من مشاعر طفولته .. كان موضع الحفاوة من الجميع الذين غمروه بعطفهم وتدليلهم .. وشعر لأول مرة بمدى مسؤوليته تجاه هذه الاسرة .. لمس ذلك من طريقة معاملتهم له ، كانوا يعاملونه ولأول مرة ، كرجل ، لم يعد ذلك الطفل المدلل . احس في نظراتهم بشيء جديد لم يعهده ، نظرات تفضح مشاعر الاعتزاز والفخر بابن الاسرة واملها .. وأحس برجولته وشعر بمدى الخطأ الذي ارتكبه في حق الاسرة ، وفي حق سهام .. ترى ما هو وقع المفاجأة عليهم لو علموا نبأ زواجه من ليزا ؟! هل سيغفرون له ذلك؟!

وغادر عائدا الى لوس انجلوس بعد انتهاء العطلة دون أن يجد الجرأة للاعتراف بالحقيقة..! وودعته سهام بدموع زاخرة لم تفلح في حبسها .. رغم انه حاول ، طوال اقامته هذه ، تلافي الانفراد بها أو أضفاء أي طابع عاطفي على علاقته بها . كان يشعر ، بطبيعة الحال ، بثقل العبء ودقة الموقف . ولم يشأ أن يمنحها بصيص أمل في أي مستقبل قد يربط بينهما بعد عودته ، وربما لاحظت هي ذلك وقلقت له . كان يلمس ذلك من نظراتها الصامتة المعبرة عن حقيقة مشاعرها تلك . ولكنه لم يضعف أو يسمح لنفسه باستغلال الموقف . كان يشعر بمدى مسؤوليته الجديدة وارتباطه المحتوم بزوجته التي اختارها هو ، وأحبها حبا دفعه إلى الزواج منها ، رغم كل المحاذير ..! وعليه الآن ، أن يكون في مستوى المسؤولية ، أما سهام فلن تلبث أن تخطب وتزف وتنجب الاطفال وتنسى كل شيء عندما يكون قد عاد بعد ثلاث أو أربع سنوات . هذا قدره وذاك قدرها ..!

● ● ●

كانت المفاجأة التي تنتظره بعد عودته إلى لوس انجلوس مثار اضطرابه وحيرة مشاعره .. تلك المشاعر التي تراوحت بين السعادة والقلق .. بين الابتهاج والخوف .. شعورا بثقل العبء .. فها هي زوجته تحمل في احشائها ثمرة زواجه .. سيصبح أبا بعد بضعة أشهر .. نعم أبا .. وهو في هذه السن المبكرة .. يا الهي من كان يتصور ذلك ؟!

كانت المفاجأة أكبر من تصوراته ، وكأنما أفاق لأول مرة على واقع حياته الجديدة التي سار على خطاها منذ زواجه من ليزا ، كان لا يزال يعيش في ظل نشوة عارمة كمن يمر في فترة عابرة ، أومغامرة مثيرة لن تلبث أن تصل إلى حد ما .. ! أي حد .. إلا هذا ..!

ودغدغت حواسه فكرة أن يصبح أبا وانتابه فيض من مشاعر السعادة الحزينة الوجلة .. وشعر لأول مرة بانه قد تخطى سن الطفولة أو المراهقة إلى دنيا جديدة .. بمسؤولياتها واعبائها الثقيلة ! ليكن . لقد قضى الامر ولات ساعة مندم .. إنه الطريق الذي اختاره ، وعليه متابعة السير حتى آخر الشوط وأدرك ، إذ ذاك . أن طريقه هذا ليس دائما معبدا بالورود ، وان عليه أن يعد نفسه لاجتياز كافة العقبات التي لا بد وأن تعترض هذا الطريق . وزفر زفرة كمن يتهيأ للقيام برحلة طويلة شاقة .. وضم إليه زوجته كأنما يضم إليه جنينه الذي يربض في احشائها ليستمد منه الطمأنينة التي كان يشعر أنه في حاجة إليها ..

ود في تلك اللحظة ، لو ضم إليه أمه الحنون ، يودعها مكنون مشاعره ، لعلها تشاركه بعض همومه ، كما كان يفعل كلما ثقلت عليه وطأة تلك المشاعر في زخمها المضطرب .

واحس بيد زوجته ، وهي تتخلل شعره في حنان وتضمه إليها كأنما لتستعيده من سفر افكاره تلك .. وسكنت نفسه لهذا الحنان ، بينما أخذت دموعه تنساب على خديه حتى شعر بملوحتها واستعذبها .. كطفل رضيع هدأ واستكان على صدر أمه ..

● ● ●

انهى والد طارق رسالة ابنه الطويلة التي اخبره فيها بكل شيء . ويتوسل إليه أن يتفهم الظروف التي حدت به إلى الزواج من ليزا ويرجوه فيها أن يتقبل الامر الواقع خاصة وأن في احشائها أحد احفاده ..

- أحد أحفادي .. يا الهي .. هذه مشيئتك ..

وزفر زفرة وهو يغمض عينيه في محاولة لتركيز افكاره ازاء هذا الموقف العصيب .. وظل على حاله تلك فترة من الزمن سمحت له بالتغلب على مشاعره الخاصة ، والتخطيط لما يترتب عليه اتخاذه بحكم مسؤوليته كرب للاسرة ، يدرأ عنها كل ما قد يحيق بها من أذى ، أو يعرضها للتصدع ، أو تنتاب أحد افرادها أزمة مستعصية لا سبيل إليه في تجاهلها او التخلي عن دورة الطبيعي كحامي حمى الاسرة والمسؤول عن مستقبلها وسعادتها ودرء المخاطر أو المصاعب التي قد تحيق بها أو باحد افرادها ..

.. وها هو ابنه طارق يقع في مأزق .. اوقعته فيه قلة تجاربه وانعدام خبرته في الحياة .. وها هو يمد له كلتا يديه كالغريق يستنجد عاطفة الابوة فيه لاعانته على مواجهة هذا الاختيار الصعب وتقبل الامر الواقع الذي ساقه إليه قدره ..

وقطعت عليه افكاره تلك ، زوجتـه ، وقـد لاحظـت ما اعتـراه من اضطراب .. فانتابتها الهواجس وهي تسأله جزعة :

ـ خير انشاءالله يا «أبو طارق» .. ما هنالك ..؟!أهي رسالة من طارق ! ماذا به ؟ اخبرني بالله عليك .. أهو بخير .. هل حدث له مكروه ..؟!

وسيطر على اعصابه وهو يفتعـل ضحـكة عالية سرت مسرى الماء الزلال في قلب زوجته .. وهي تتطلع إليه متسائلة .

ـ يا ستي لا تقلقي .. طارق بخير بل بالف خير .. ويبدو أنه سعيد جدا بحياته الجديدة ..

ـ حياته الجديدة ؟! ماذا تعني بالله عليك ؟!

ـ نعم .. حياته الجديدة أو لا يحق له أن يختار حياته التي يريدها ؟!

ـ اوه .. ما هذه الاحاجي يا «ابو طارق» ؟!

ـ الموضوع ـ يا ستي ـ قولي خير انشاء الله ..

ـ خير يا رب ــ خير ..

ـ اصله شوفي بصراحة .. الولد يظهر أنه عاشق وولهان .

ـ عاشق وولهان ؟! استغفر الله العظيم ..

ـ يا ستي لا تخافي .. العشق بالحلال ليس بالحرام ..

ـ وهل هناك عشق بالحلال ؟!

ـ طبعا يا ام طارق .. العشق بالحلال هو بالزواج ..

ـ ماذا ..؟!

طبعا .. فمثلا إذا قلت لك أنا اعشقك .. أنا أحبك يا أم طارق .. هل هذا حرام ؟!

ـ يا شيخ كف عن هذا المزاح .. اخبرني بالله عليك هل تعني انه قد تزوج ؟!

ـ نعم .. يا ام طارق .. تزوج وسينجب لنا عما قريب حفيدا أشقر اللون كوالدته الاميركية ..

وتهاوت زوجته على أقرب مقعد ، واغمضت عينيها كما فعل هو من قبل وهي تردد :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذه مشيئتك يا رب .. ذلك ما كتب له ..

وربت على كتفها بحنان وهو يقول :

ـ اسمعي يا أم طارق .. ما حدث قد حدث ، ولا سبيل لنا إلى اصلاحه .. بل احمدي الله سبحانه وتعالى ، أن طارق بخير ولم ينله أي مكروه آخر .. أما موضوع زواجه هذا ، فهو شيء يخصه هو .. وهو

المسؤول أولا واخيرا عن اختياره لطريقة الحياة التي تحلو له ..
ـ هذا صحيح .. ولكنه جاهل جاهل .. لقد غروه اولاد الحرام وعبثوا به ..

ـ لا .. لا .. ابدا .. طارق رجل وقد شب عن الطوق ، وأنه لمدرك تماما ما أقدم عليه .. دعيه .. نعم دعيه للحياة .. يعتركها وتعتـركه .. كما عركتنا نحن من قبله .. الحياة تجارب وللاسف ليس في وسعنا دائما تقديم تجاربنا على طبق من الفضة هدية لابنائنا ، لنوفر عليهم مرارة الاخفاق في التجارب والمعاناة من الامها ونتائجها .. نعم هذه هي سنة الحياة ، لان على كل امريء ان يمر في تلك التجارب ليعرف بنفسه ويتعلم منها .. ولكن لا يعني ذلك بالضرورة الاتكال عليها والاستمرارعلى هديها ، مهما تغيرت الظروف والأحوال .. العالم تطور ، وظروف الحياة تغيرت كثيرا .. وليس بالامكان تكرار نفس التجارب التي مررت بها أنا او انت .. كما اننا لم نمر بنفس التجارب التي سبق أن مر بها آباؤنا واجدادنا من قبل ..

دعيه اذن يمر بهذه التجارب ، ويخبر الحياة حلوها ومرها بنفسه ، فهذا اصلح له وربما ثبت له ، فيما بعد ، خطأ تصرفه ، او ربما قد يثبت لنا نحن خطأ تفكيرنا .. والمستقبل بيد الله ..

ـ ونعم بالله .. كلامك صحيح والله يا ابو طارق .. وأنا مقتنعة به ، انما يا خسارة على طارق ! يتزوج من اجنبية .. ونصرانية كمان !! كم كنت اتمنى ان افرح به وهو يزف الى سهام البنت الطيبة الحلوة الـ .. ولـم تستطع مقاومة رغبة ملحة في الاجهاش بالبكاء ، وتركها زوجها تطلق لمشاعرها المكبوته عنانها .. فقـد ادرك ، باحساسه المرهف ، مدى وقـع

الصدمة عليها ، واحترم مشاعرها تلك ، فلم يسترسل في الحديث ، ولاذ بالصمت يبتلع مشاعره الدفينة بدوره هو ايضا ..

● ● ●

كانت الرسالة الأولى التي تلقاها طارق من والده بعد أنبائه بخبر زواجه من ليزا بمثابة اعلان نتيجة الامتحان في الجامعة بما فيها من قلق وتوتر واثارة ..!

كانت الرسالة قصيرة ومقتضبة .. كأنما تحمل عبارة (ناجح بدرجة مقبول..) التي تعود على قراءتها في لوحة الجامعة عند اعلان النتائج آخر العام . لم يسره اسلوب الرسالة ، كذلك لم تزعجه تماما .. كما حدث في العام الماضي عندما شاهد اسمه في اللوحة وامامه عبارة (ناجح بدرجة مقبول) المهم انه نجح .. أما درجة النجاح فكانت على قدر اجتهاده ، وعليه يقع اللوم ، وعليه ان يعترف بذلك . لم يكن عمله ـ ذاك ـ بالشيء الذي يستحق عليه درجة (امتياز) او حتى (جيد) .. مقبول . حسنا هذا يكفي المهم أنني لم ارسب في الامتحان .. لقد تقبل والدي النبأ برباطة جأشه المعهودة . ولا بد أنه اقنع والدتي بحكمته ولباقته المعروفة .. ومر الامر بسلام .

هذا ما توحي به الرسالة المقتضبة التي تلقاها من والده .. وبدرت منه حركة عفوية كأنما يلقي عن كاهله حملا ثقيلا ، وتنفس الصعداء وهو يغمغم : الحمد لله نعم .. الحمد لله .

اطمأنت نفسه كثيرا بعد وصوله تلك الرسالة ، وانكب على مراجعة دروسه والتحضير للامتحان التالي وقد تملكته رغبة قوية في التفوق والنجاح كأنما يريد ان يعوض بهما ما كان يشعر به من ذنب خفي ارتكبه ازاء اهله ..

وفي هذه الاثناء اضطرت زوجته للانقطاع عن الدراسة في الجامعة بسبب تقدمها في الحمل ، واخذت تساعده عندما يعود الى المنزل ، في نسخ المحاضرات او تهيئة ما يحتاجه من مراجع ودراسات ، مما بعث في نفسه مزيدا من الراحة والغبطة .. ازاحت عنه كثيرا من معاناته خلال الاشهر الاخيرة .

وحل اجل الامتحان .. وانقضى بافضل مما كان يتوقع .. وكانت نتيجته مشرفة وكانت ثمة نتيجة اخرى في انتظاره .. ابنه البكر .. الذي جاء مع تباشير فجر اليوم التالي لظهور نتيجة الامتحان ..

وغمرته السعادة وهو يتلقى عبارات التهاني من الاصدقاء .. وود لو كان معه والداه يشاركانه هذه الفرحة المشحونة بالمشاعر .

والتقط له صورة جميلة بالالوان بعثها لوالديه رفق صورة من نتيجة الامتحان المشرفة ، فقد كان يطمع في ان تتساوى كفة الميزان .. وابتسم لنفسه امام هذا الخاطر ، وهو يتخيل انعكاسات مشاعر والديه عند مشاهدتهما لصورة حفيدهما الجديد .. سامي ..!!

(٨)

قد تؤثر في سلوكنا الاحداث ، أكثر مما يؤثر فيه مرور الزمن وانقضاء السنين .. وهذا ما حدث تماما لطارق .. فقد شعر ، بعد انجاب ابنه الأول ، بمدى المسؤولية الجديدة التي اضيفت إلى اعبائه الأولى ..

كانت اعباؤه تلك تقتصر ، في البداية على اقتحامه مرحلة جديدة من الدراسة لم يألفها ويعتمد نجاحه فيها على مدى ما يبذله من مجهود شخصي ، واعتماد على النفس ، ويبدو انه اجتاز تلك التجربة بسلام ، ثم وجد نفسه فجأة ، امام تجربة اخرى اكثر صعوبة واشد تعقيدا وارهاقا .. واجتاز تلك التجربة ، ايضا ، بما فيها من آلام ومعاناة ..

لقد كان تصميمه على الزواج من ليزا اقوى من اي شيء .. ولم تفلح مثله ومبادئه ونمط تربيته ، في الحيلولة بينه وبين هذا الزواج . وكان له ما اراد .

والآن .. ها هو يدخل في مرحلة أخرى من التحدي والصمود .. كانت مسؤوليته في البداية لا تتعدى شخصه هو ، أما الآن فها هو امام مسؤوليات جديدة ، بوصفه رب اسرة ، نعم اسرة تتكون من زوج وزوجة وطفل .. وربما طفلين او ثلاثة بعد بضع سنوات .. أو لا يعني هذا القاء اعباء جديدة على

كاهله ؟! كانت موارده المالية المحدودة تضيق عن الوفاء بالتزاماته الجديدة وفكر اكثر من مرة في البحث عن مورد آخر قد يعينه على تحمل اعبائه تلك .. ولكنه لم يوفق في العثور على العمل المناسب .. ثم وقف صامدا امام توسلات زوجته والحاحها بطلب المساعدة من والده كان يشعر انه ارتكب خطأ تقع عليه وحدة تبعته ، وعليه ان يدفع ثمن قراره وممارسة حقه في الاختيار !!

واغرق نفسه في الدراسة ، سعيا إلى إختصار مدة بقائه واستباق موعد التخرج ، فغير من نمط حياته السابقة ، وانقطع عن محيط اصدقائه وزملائه ، وزاد من سمك زجاج النظارة التي لم يمض عليها أكثر من عام واحد .. بعد ان ارهقت عينيه قراءة الكتب والمراجع واجراء البحوث الطويلة .. و.. الحرمان من الضوء الطبيعي وهو دفين حجرته أو مكتبة الكلية ، ولكنه رغم ذلك كان يشعر بلذة غريبة استحوذت على مشاعره ، ونمط سلوكه . لقد كان ـ انذاك ـ كتائه في صحراء قاحلة ، اضناه الظمأ ، وادمت قدميه رمال الصحراء واشواكها السامة ، ولكنه مصمم على متابعة السير دون أن ينتابه اليأس أو يشعر بآلامه تلك ، املا في الوصول ، في النهاية ، الى مشارف المدينة التي تتراىء له في الافق البعيد ، حيث النهاية لتلك الالام والمعاناة القاسية . كان كل همه أن يصل .. أن يفيق من الدوامة ، وبعدها .. سينام ملء جفنيه .. سترتاح قدماه وسيزيل عنها الاشواك التي ادمتها في ترحاله الطويل .. وسيطفىء لظى قلبه حنانا وحبا .. وعطفا ..

وكان كلما إزداد به الحنين ، واضنته الشجون لذكرى الأهل ، عاد فاغرق نفسه من جديد في دوامة الدراسة والتحصيل ، حتى حقق نجاحا باهرا في امتحان العام التالي ولم يبق عليه سوى عام آخر يحصل بعده على الشهادة الجامعية وينال حكما بالافراج من عزلته ومعاناته .. حيث ينتظره الوطن ..

والمستقبل .. وحنان الأهل ..

غير أن طارق نسي ، في غمرة انهاكه هذا أن له زوجة وطفلا يشاركانه الحياة في المنزل كانت مجرد لحظات خاطفة ينتهزها لمداعبة طفله أو تبـادل الحديث مع زوجته ، وكانت في معظمها احاديث جافة تبعـث على الضيق والملل ، مشاكل المنزل ، طلباته ، تسـديد الفواتـير المستحقـة الكهربـاء ، والهاتف والبقال ، ضرورة التفرغ لزيارة الطبيب لفحص الطفـل واعطائـه اللقاحات الازمة ..

كانت زوجته تنتهز فرصة فراغه لبضع دقائق ، لافراغ كل ما في جعبتها من احاديث تبعث في نفسه التبرم والضيق ، اذ انه في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إلى بضع دقائق من الراحة والترفيه بمداعبة طفلـه سامـي أو مشاهدة التلفاز ، كانت زوجته تزعجه بحديثها واسئلتها وطلباتها .. هكذا كان تفسيره هو ، وكانت تلك غلطة اخرى ارتكبها في حق زوجته فقد نسي في غمرة هذا الانهاك في الدراسة ان له زوجة لها عليه حق المشاركة في الحياة وتحمل مسؤوليات البيت ، وتربية الطفل ، إن لم يكن حقها في الترفيه والمشاركة في الحياة الاجتماعية وتبادل االزيارات مع الاصدقاء ، او مشاهدة فيلم بين وقت واخر او الخروج لتناول طعام العشاء في عطلة نهاية الاسبوع كما كانا يفعلان من قبل ..

أين كل ذلك مما هي عليه الان ؟ ها هو يتبرم ويضيق بحديثها ، ويوجه إليها اللوم لانها تتعمد ازعاجه في اويقات راحته القصيرة .. ما ذنبها هي ، إن لم تجد لديه الوقت الكافي للتحدث إليه الا في هذا الوقت ؟ وما ذنبها ، ان كانت احاديثها تلك تقتصر على امور جافة تقتضيها مسؤولياتها كربة بيت ، هل أبقى هو لها وقتا آخر تتحدث إليه فيه بغير تلك الأمور كما كان يفعل من قبل ؟

وتذكر كيف كان حاله قبل الزواج ، وفي العام الأول من زواجهما .. كان يقول انه يفضل تبادل الاحاديث الشيقة معها على الذهاب الى السينما أو القيام بزيارة لبعض الاصدقاء ، كان من نوع آخر .. تستهويه أحاديثها ويضحك لدعاباتها ، ويغرق في بريق عينيها .. كان يهوى كثيرا ترجمة الاشعار العاطفية وابيات الغزل الرقيق من العربية إلى الانكليزية ، وكانت كثيرا ما تضحك لمحاولاته الساذجة في التعبير عن معاني تلك القصائد الغزلية .. وكانت سعيدة ، وكان هو أكثر سعادة بها ..

وها هو الان ، يتبرم بحديثها ويتمنى لو بقي لوحده بضع لحظات يرتاح فيها يا الهي هكذا اضحي بقاؤها معه في تلك اللحظات مصدر ازعاج وضيق ولكن ماذا تفعل ؟ هل هي التي اخطأت ؟ اقترحت عليه ذات مرة . عندما استفحل الامر ، أن تذهب للاقامة مع اسرتها مع طفلها سامي لعله يجد في ذلك بعض الراحة ، ولكنه رفض الاقتراح بشدة وصمم على بقائها معه في المنزل . ورضيت بذلك على وعد منه بتغيير نمط حياته تلك . وسرت كثيرا بهذا الوعد الذي لم يتحقق سوى لبضعة أيام معدودة ، عاد بعدها إلى ما كان عليه من عزلة واستغراق في الدراسة و .. تبرم بحديثها !.. ولم تجد مفرا من محاولة تغيير نمط حياتها هي ..

بدأت في دعوة الاصدقاء لقضاء السهرة في المنزل ، أو مشاركتهما طعام الغداء أيام الاحد ، أو ، أو لعب الورق في الصباح .. ولكن ذلك لم يرق لزوجها. كان في البداية يضيق بوجود اصدقائها في المنزل أو اضطراره لمسايرتهم والبقاء معهم لفترة طويلة ، فأخذ يتهرب منهم بالاعتذار بانشغاله بالدراسة وينسحب إلى غرفته يغرق من جديد في كتبه ومراجعة وبحوثه .. واضطرت زوجته لأن تقبل مرغمة ، بسلوكه هذا ، الا أنها واصلت حياتها تلك دون أن ترغمه على

البقاء معهم طوال الوقت . وتتابعت الزيارات ، والسهرات .. وشعر طارق بضيق شديد من جراء هذه التصرفات الجديدة التي لم يألفها أو يتقبلها .. وصارح ليزا بذلك محتجا بضرورة توفير الجو الهادىء الذي يساعده على المذاكرة والتحصيل .. فادى ذلك إلى أن تحولت تلك الزيارات والسهرات إلى خارج المنزل ، اضحت تخرج مع اصدقائها للتنزه أو مشاهدة افلام السينما ، أو حضور حفلة راقصة في عطلة نهاية الاسبوع ، أو مشاهدة مباريات كرة القدم أو التنس أيام الآحاد ..

لم يشعر ، في البداية ، بمدى الخطورة في هذا الاتجاه الجديد من زوجته ! كان سعيدا بالبقاء وحيدا في المنزل ، ولم تكن الدقائق التي كان يضطر لقضائها مع طفله سامي عندما يستيقظ أو يحتاج إلى اطعامه أثناء غياب زوجته ، لم تكن تثير لديه أي ضيق . بل كان على العكس من ذلك يشعر انه ارتاح من ثرثرة زوجته ومضايقاتها له في احاديثها السخيفة المملة !

.. إلى أن آفاق لنفسه ذات يوم كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل .. وزوجته خارج المنزل تقضي سهرتها لدى بعض الاصدقاء الذين كانوا . كما اخبرته يحتفلون تلك الليلة باحدى المناسبات الخاصة . واستغرقه النعاس وهو منكب على مكتبه أمام أحد المراجع العلمية .. عندما استيقظ على صراخ طفله الذي كان يصرخ بصوت عال افزعه ، وحاول تهدئته باعطائه بعض اللبن وحمله على صدره يهدهده كما اعتاد في مثل هذه الحالات ولكنه لم يهدأ .. وظل يصرخ بالم بعث القلق في نفسه ، اذن لا بد أن الطفل مريض . ماذا يتوجب عليه فعله في هذه الحالة ؟ ذهب إلى صيدلية الحمام يبحث عن دواء مسكن يذكر أن زوجته

كانت تعطيه للطفل عندما يشتد بكاؤه ، ولكنه لم يهتـد إليه ، واخـذ صراخ الطفل يشتد . وبدأ في التقيؤ مما زاد من قلقه وجزعه ، ونظر في ساعته : لقد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل .. تملكه الحنق وأخذ يردد بصوت مرتعد :

ـ يا إلهي .. أين هي هذه الملعونة ؟! وماذا تفعل هناك حتى هذا الوقت المتأخر !؟ يا الهي ماذا أفعل .. ماذا أفعل

واشتد به الحنق والغضب على زوجته وامتلأ صدره بمشاعر الكراهية والحقد لتصرفاتها تلك .. ودق جرس الباب .. ودخلت وهي تكاد تتهاوى؟!

مساء الخير .. هل لا زلت مستيقظا للان إنني أسفه حقا يا طارق .. فكما تعلم الليلة كانت .. اوه .. هذا سامي .. ماذا به .. لم يبكي ؟ هل الم به شيء ؟! واختطفت طفلها من بين يديه وقد انتابها الهلع ..

نظر إليها دون أن ينبس ببنت شفة .. كانت عيناه تتقدان بالسخط والغضب ، وتلقت زوجته نظراته تلك بدرع من اللامبالاة والتجاهـل ، وحملت طفلها إلى غرفته واغلقت خلفها الباب ..

لم ينم طارق ليلته تلك ، واستغرق في تفكير عميق تتخلله حلقات متواصلة من دخان السجائر التي أغرق اعصابه التالفة في متاهاتها كأنما يرسم امامه صورة المستقبل الذي ينتظره ، وتصاعدت حلقات الدخـان لترسم دوامة قاتمة ملأت سقف الغرفة وأخذت تتساقط منهـا علامـات استفهام كثيرة .. تطرح نفسها على تفكيره .. بانتظار جواب ما ..!

شعر باعياء شديد وهو يقاوم رغبة شديدة في التقيؤ .. ودلف إلى دورة المياه والقى برأسه تحت حنفية الماء البارد ، فشعر بانتعاش وهو يستنشق

رائحة الماء .. وكأنه يكتشف لأول مرة أن للمياه رائحة !؟ أحس بخدر لذيذ واتجه إلى النافذة وحبات المياه الباردة لا تزال تبلل وجهه .. فاستعاد قواه وآفاق لواقعه المرير ..

وأشعل لفافة أخرى والقى بنفسه على المقعد وهو يزفر باهة طويلـة اودعها كل ما كانت تجيش به نفسه ـ اذ ذاك ـ من مشاعر وانفعالات واضطراب فكر ..

لقد سبق له أن مر بعدة تجارب صعبة وقاسية منذ مجيئه إلى هنا .. وقدر له أن يتخذ عدة قرارات هامة وحاسمة .. لم يسبق له أن تعود على تحمل مسؤوليتها ، كان دائما ـ قبل مجيئه إلى هنا يجد من ينوب عنه في تحمل هذه المسؤولية ، وكان أبواه يوفران عنه هذا الجهد ، ربما لم يكن راضيا تماما عن تلك القرارات ، ولكنه لم يفكر في يوم من الأيام أنه يحق له أن يعترض عليها أو يشارك في إتخاذها .. فهما أدرى بمصلحته ـ كما كانا يرددان له دائما عندما يلمسان لديه نوعا من التذمر أو الاحتجاج .. ولكنه هنا في وضع مختلف تماما .. لقد آن له أن يعتمد على نفسه ، ويتخذ قراراته من وحي ما يراه أو يعتقد ـ هو ـ مناسبا له .. وكان قراره المفاجيء بالزواج من ليزا أهم واخطر قرار (تسرع) في اتخاذه واضاءت هذه الكلمة أمام عينيه كما كانت تضيء أحرف إحدى الاعلانات الملونة أمام المنزل لتثير انتباه المارة .. اثارت انتباهه هذه الكلمة .. تسرع .. تسرع .. تسرع ..

وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه :

ـ هل حقا تسرعت في الزواج من ليزا ؟!
وهل كان القرار خاطئا ..

وهل فكرت اذ ذاك في عواقبه ؟! وهل كنت تعي ـ اذ ذاك ـ مسؤولية هذا القرار المصيري وتأثيره على مستقبلك العائلي !؟

.. اذ ذاك .. اذ ذاك ..؟!

ماذا تعني بهذه الكلمة ؟

هل تحاول ـ الآن ـ أن تلتمس لك عذرا ما بالاعتراف بقصور تفكيرك وصغر سنك وقلة تجاربك التي أوقعتك بهذه (الورطة) الآن ..؟!

ربما .. !! ليكن هذا صحيحا .. ولكنك الآن .. الآن أنت شيء آخر شخص آخر . أنت رجل بل أب لطفل بريء تقع عليك مسئوليته .. كما كنت في السابق تحتمي من هذه المسئولية بوالدك ، الان جاء دورك لحمل هذا العبء وتحمل المسئولية .. نعم مسئولية .. ويا لها من مسئولية ثقيلة أعجز بمفردي عن التفرد بحملها ..

أين أنت يا أبي .؟ ليتك كنت هنا الآن بجانبي ، ولكن ما ذنبك أنت .؟ أو ماذا يمكنك أن تسديه لي في هذه المحنة التي تمزقني ؟!
النصح .؟

لا .. لا يجدي شيئا .
هناك ثمة قرار.. قرارما .. علي ـ أنا ـ أن أتخذه . نعم أنا ولا أحد غيري

.. قرار ما .. ؟!
ولكن كيف ..؟!

تمالك أعصابه ، كي يتسنى له ترتيب أفكاره المضطربة ، وهو يجد نفسه

امام هذا الخيار الصعب أخذ يحدث نفسه بصوت مسموع كي لا تهرب منه أفكاره :

ـ لنبدأ من الأول ، نعم من الأول .. هل كان عليك أن تتسرع في الزواج من ليزا .. ألم يكن من الاجدر بك أن ..

لم يعجبه هذا الاسلوب في الحوار مع نفسه عندما كان والده يؤنبه على ارتكاب خطأ ما .. كان يكره كثيرا عبارات التقريع هذه .. وهو الآن أشد كرها لها وهي تلقى على مسامعه منه ـ هو ـ

ـ حسنا .. فلأكف عن هذه الملامة التي لا تجدي . من يدري .! ربما كنت مخطئا ، وربما لم أكن ، لقد حدث ما حدث .. المهم الآن هو ما أنا فيه ، وكيف اخلص من هذا العذاب الذي يكاد أن يقضي على مستقبلي .

... **الطلاق** ...؟!

واتسعت أمام عينيه أحرف هذه الكلمة البغيضة كعنوان بارز في صدر صحيفة يومية لأنقلاب عسكري في إحدى الدول المهمة ، تملأ تفاصيله صفحات الجريدة كلها ..

.. **يا له من انقلاب** ..!!

.. ليزا .. سامي .. البيت .. الفراق .. الفشل .. الحب .. الكراهية .. الـ .. الكراهية ..؟!

هل أنا أكرهها ،؟ هل أنا حقا أكرهها ..؟!

.. إن كنْت كذلك ، فقد حلت نصف المشكلة ، أو على الأقل أصعب جانب منها . لقد تزوجتها لأنني كنت أحبها .. والآن لم أعد أحبها ذلك

الحب .. بل إنني أكرهها .. أكرهها .. إذن ماذا يرغمني على الحياة معها بعد الآن ..؟!

تكرهها ..؟!

هل تعتقد ذلك ؟! هل أنت متأكد من إحساسك هذا ؟ أم أنك أمام شعور طاريء ضخمته لك أحداث هذه الليلة لن يلبث أن يتلاشى مع مرور الأيام ..!!

ربما ثمة أمل .. من يدري ..؟

لماذا لا تفصح لها عن حقيقة تصرفاتها الخاطئة هذه ؟ لماذا لا تحاول اصلاحها وتخييرها بين اسلوبها هي في الحياة ـ كما تعودت في مجتمعها ـ وبين اسلوب الحياة العربية بمثلها وتقاليدها وقيمها ..؟

احاول ..؟! او لَمْ احاول ..؟!

.. بلى .. حاولت ، ولكنك لم تكن جادا ، أو انك استسلمت للامر الواقع دون أن تعي محاذيره ، وما يمكن أن يجره من نتائج وخيمة ..

هذا غير صحيح .. لقد حاولت في البداية كثيرا حتى غلبني اليأس . كان علي أن اختار بين مستقبلي والتفرغ للدراسة وبين الانهماك في هذه المشاجرات البغيضة التي لا تنتهي ..

حسنا .. هذه بداية طيبة ، لقد قلت الآن أنك فضلت الاختيار الثاني دراستك ومستقبلك .. هذا يعني ببساطة أنك لم تكن جادا ، أو لم تعد جادا في حبك لليزا .. بل ربما أخذت منذ ذلك الوقت تشعر نحوها باللامبالاة والتجاهل حتى أدى ذلك إلى تطور هذا الشعور إلى نوع من الكره والبغضاء ، فبادلتك هي نفس الشعور ، هذا شيء طبيعي وتلقائي ..

فالمشاعر الانسانية تحكمها انعكاسات مشاعر الآخرين وتؤثر فيها ..

من يدري ..؟! ربما كانت هي البادئة في هذا الشعور الذي تتحدث عنه ؟

هذا جائز جدا .. بل هو الأقرب إلى الحقيقة ، ولكن هذا لا يغير في الأمر شيئاً .. فما حدث قد حدث .. من هو المخطيء ؟؟ من هو البادىء ؟؟ هذا ليس وقته الآن . إنما أنت تقر معي الآن بأن ثمة شعوراً متبادلا بانطفاء جذوة الحب الأولى ، تطورت بفعل الظروف الحياتية التي كنتما تعيشانها ، دون أن تعيا مدى خطئها أو خطورتها على مستقبل حياتكما الزوجية حتى حدث ما حدث .. هل تعني أن كل شيء قد انتهى ؟؟

قالها بزفرة بدت كحشرجة ذبيح يستنجد ..

ـ لا أدري !! لا أدري !!

هناك سامي ذلك الطفل البريء .. ما ذنبه ؟؟ وكيف تجسر على انتزاعه من حنان أمه ؟ وما هو مصيره ..؟؟

ـ أي حنان هذا ؟ هل كانت ليزا بالفعل تلك الأم الحنون ؟ هل وعت مسئوليتها في يوم من الأيام ؟

وأفاق طارق عند هذا الحد من الحوار مع نفسه ، وتذكر صراخ طفله سامي وهو يتلوى من الألم ، وفاضت نفسه بمشاعر الحنق وهو يتذكر عودة ليزا في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، و (الحالة) التي كانت فيها اذ ذاك .. وشعر باعياء شديد ، أحس برأسه تكاد تنفجر ، تمالك نفسه وهو يقاوم رغبة ملحة في الصراخ بأعلى صوته ، أمسك برأسه بين يديه ونفث دخان سيجارة أخرى وهو يضع نقطة النهاية لآخر جملة من قصة حياته مع ليزا ..

ارتاح لهذا القرار بعد أن القى عن كاهله هذا الحمل الثقيل ، واستغرقه

النعاس حيث قضى أسوأ ليلة عرفها منذ وصوله .. لم ينقذه منها سوى تلك النقطة السوداء .. نقطة النهاية .!

استيقظت ليزا في صباح اليوم التالي وهي تقرأ في عيني زوجها طارق صورة القرار الذي اتخذه .. صورة مصيرهما المشترك الذي لا مفر من أن يؤول إلى ما آل إليه .. كانت عيناه السوداوان ترسمان نقطة النهاية الحزينة لقصة حياتهما القصيرة .

وترقرقت عيناها بالدمع وهي تحتضن طفلها سامي وصورة المستقبل الغامض تحجب الرؤية أمام عينيها .. وتطلعت إليه في نظرة أخيرة كمن يتساءل : أحقا انتهى كل شيء ؟؟

لم ينبس طارق بأي شيء . كان قراره الصارم واضحا في نظراته القاسية الصلبة .. وسارع إلى حقيبة كتبه يحملها وهو يغادر المنزل دون أن يتفوه بكلمة واحدة تبدد وجوم ذلك الصمت الكئيب .

.. وبعده ببضع ساعات ، غادرت ليزا المنزل ـ بدورها ـ تحمل بين يديها ابنها سامي .. وذكريات ثلاثة أعوام قضتها مع طارق ، بدايتها كأسطورة حب شرقي ، ونهايتها تلك المأساة المريرة .. كنهاية حزينة لأحدى القصص التي تزخر بها الحياة ..!!

(٩)

كان أزيز محركات الطائرة الضخمة ، وهي تشق طريقها عبر مدرج مطار لوس انجلوس ، أشبه بنواح ثكلى ، فقدت وحيدها .. واهتزت الطائرة وهي تحلق عبر الاجواء الملبدة بالغيوم والضباب الكثيف ، الذي لم يلبث أن حجب مبنى المطار ، حيث كانت تقف منذ لحظات ليزا خلف الزجاج ملوحة بيديها تودع ابنهاسامي الذي سكن بين ذراعي والده ، دون أن يعي حقيقة تلك المأساة .. وأن ذلك ربما كان آخر العهد بأمه ..

وعاد طارق بذاكرته إلى الوراء .. وتراءت امامه صورة سفره من مطار جدة منذ سنوات وما مر به من أحداث مثيرة خلال تلك الفترة التي قضاها خارج وطنه ..

ها هو الآن في طريقه إلى الوطن ، بعد أن أنهى دراسته ، وحمل معه ثمرة زواجه الفاشل من ليزا ، وتطلع بحنان إلى طفله وقد استغرق في النوم ، فرأى على قسمات وجهه البريئة ، صورة المستقبل الغامض الـذي ينتظـره ، بل ينتظرهما معا ..!

ألحت عليه صورة المستقبل ، وحاول أن يرسم لنفسه خطوطا عريضة يهتدي بها إلى تلك الصورة الممكنة لنمط حياته الجديدة .. وأنهكه التفكير ..



كانت تلك الصورة الباهتة تبدو أمامه مهزوزة يغلفها ضباب كثيف ، يحجب عنها الرؤية الواضحة .. تماما كذلك السحاب الداكن الذي كان يملأ الاجواء فتهتز عند عبوره أجنحة الطائرة الضخمة وتبعث في نفسه القلق والضيق .

وأستسلم في النهاية لأعيائه وراح في سبات عميق ..

.. وهدأت محركات الطائرة ، وهي تقف قرب مبنى المطار في جدة ، حيث كانت الاسرة في انتظار الابن العائد ..

حمل ابنه على كتفه ، وفي يده حقيبته الصغيرة المكتظة ، وكاد يتعثر بنظرات الاشفاق التي انبعثت من أعين مستقبليه ، لمح والدته من بعيد وهي تحاول التغلب على مشاعرها ، ووالده يقف إلى جوارها بحنان كمن يقف إلى جوار عزيز ألم به مصاب .. كانت ثمة فرحة مصطنعة بدت في قسمات أوجه مستقبليه ولكنها لم تفلح على أي حال في اخفاء حقيقة مشاعرهم الناطقة بالرثاء ..!

وارتمى على صدر والدته وهو يجهش بالبكاء .. لم يعد قادرا على كبت مشاعره واشجانه الدفينة التي ظلت سنوات طويلة حبيسة صدره ، لا تجد ملاذا للتنفيس عنها .. واجهش الجميع بالبكاء كأنما كانوا ينتظرون منه اشارة البدء ..

وارتاحت الصدور وسكنت ، وبعد أن انزاحت عنها ما كانت ترزح تحته من مشاعر مكبوته .. ومرت العاصفة بسلام ، واستعادت الاسرة فرحتها بعودة الغائب ، وكأن شيئا لم يكن ، وأخذ الجميع يتخاطفون سامي ويقبلونه ويداعبونه بعطف وحنان بعث في نفس طارق مزيدا من الراحة والاطمئنان .

●●●

أشعل طارق سيجارته العاشرة منذ الصباح وهو يرشف فنجان القهوة ،

وقد تكدست أمامه فوق المكتب أكوام الملفات والمعاملات المتعلقة بعمله الجديد في إحدى الوزارات الحديثة التي تتناسب وطبيعة مؤهلاته الدراسية وميوله الخاصة .

كان العمل الذي اسند إليه يرضي طموحه وقد بعث في نفسه شيئا من الثقة ولد لديه استعدادا نفسيا للخلود إلى الاستقرار والاندماج في الحياة الاجتماعية الجديدة التي كان يتعين عليه أن يعيشها في هذه المرحلة الجديدة من حياته العملية .. كان سعيدا بالحياة العائلية التي طال افتقاده لها وأسبغ عليه الجميع بالغ عطفهم حتى نسي أزمته أو كاد ، وتعايش مع الجو الجديد كما كان ابنه سامي محل رعاية وعطف والديه وبقية الاسرة ..

شيء واحد كان يثير قلقه ، كلما ألحت عليه والدته بفكرة الزواج ، لم تكن - بعد - آثار (النكسة) التي مني بها في زواجه الأول قد انزاحت تماماً عن مخيلته ، وكان يغرق نفسه في العمل والحياة الاجتماعية والسفر في مهمات رسمية تقتضيها طبيعة عمله ، وكان يسعى إليها كلما أمكنه ذلك . ولكنه لم يفلح مع كل ذلك في أن يصرف عن ذهنه التفكير في مصيره ..

كان يلحظ نظرات الرثاء والاشفاق في أعين والديه وإخوته كلما تطلعوا إلى ابنه وهو يلهو أو يضحك لمداعباتهم .. كان بمثابة الطفل اليتيم في الاسرة ، وبعث في نفسه هذا الشعور تصميما على اتخاذ القرار الذي لا مفر منه .. وباركت الاسرة قراره هذا ، ولم يبق سوى البحث عن الزوجة .. كانت سهام تكاد تكون المرشحة الوحيدة من جميع افراد الاسرة دون استثناء . وكانت تصرفاتها ومعاملتها لطفله سامي توحي بآمالها القديمة في الزواج من طارق ، ويبدو أنها أعدت نفسها بالفعل لذلك ، وكانت شديدة الثقة من تحققه ، وتجاوب معها الطفل في هذا الحنان الدافق الذي غمرته به ، وتعلق بها كثيرا .. وكانت والدة

طارق تسر بذلك وتشجعه ، بل وتهيء له الجو ، كأنما ترسم خطة دقيقة لمهمة صعبة آلت على نفسها تحقيقها بكل مهارة وحذر ..

كان طارق يرقب كل ذلك ويدرك ما تهدف إليه والدته وما تأمل فيه سهام .. ولم يحاول المقاومة ، كما لم يحاول من جانبه تشجيع تلك المحاولات أو صدها .. كان يود أن تستمر فصول هذه المسرحية حتى النهاية .. وكان في قرارة نفسه يتمنى أن تكون تلك النهاية المرتقبة كالنهايات السعيدة في الروايات الشرقية .. لعلها تنتشله من صراعه هذا وتضع حدا لمعاناته .

كانت السنوات الست التي غاب فيها عن سهام كفيلة بأن تنسيه عواطفه السابقة ازاءها ، تلك العواطف الفجة التي لم يكتب لها أن تنضج أو تتضح .. كانت عواطف بريئة ساذجة كطفولتهما .. ولم يبق منها سوى لمحات طيف من ذكريات عذبة غلبت فيها مشاعر التآلف والود بين رفيقين من رفاق الصبا أكثر مما هي عواطف بين عاشقين لم يمهلهما الزمن لاكتشافها أو التعبير عنها .. ها هي سهام أمامه ، جميلة ، أنيقة ، مرحة كعادتها .. يسري من ثناياها عبق انوثة خجلة كبرعم يبث اريجه . كلما تدفق حنانها تغمر به ابنه سامي .. وهو يلوذ باحضانها كأنما يعلن أمومتها له . وتراءت له صورة المستقبل : شقة أنيقة تجمعهما معاً .. حياة عائلية جديدة مستقرة ، ونهاية سعيدة للعذاب الذي تذكره به نظرات الأهل المشفقة ..!!

وكأنما قرأت سهام أفكاره تلك التي وشت بها عيناه الدامعتان .. لمحت فيهما كل شيء ! واكتست نظراتها ببريق من السعادة اثار في طارق



رعشة مفاجئة اهتز لها جسده وهو يبادلها النظرات كأنما يزف إليها النبأ السعيد ..

ولم تحتمل سهام أكثر من ذلك ، حملت سامي وهي تضغطه فوق صدرها وهرولت إلى الشرفة تداري عبرات طال احتباسها في مآقيها . وتجرأ طارق وهو يتهرب من نظرات الأهل التي كانت ترقب ذلك المشهد ، وتبعها إلى الشرفة ..

كانت تقف هناك تحتضن سامي بين ذراعيها وعبراتها تنساب من عينيها كزغرودة فرح في ليلة عيد حزينة ..!
ربت طارق على كتفها بحنان وهو يقول ..

- سهام .. لم تبكين ..؟! الا تخشين أن يزعل سامي منك ؟.. هه؟!
وابتلعت بعض قطرات من الدمع سالت على شفتيها وهي تتصنع ابتسامة حزينة ! تابع خطته :

- ماذا فعلت بأمك يا سامي حتى جعلتها تبكي هكذا ؟! هه ؟ قل لي أيها الولد الشقي .. لا .. لا إن فعلت ذلك مرة أخرى بامك سهام فلن ترضى بك إبنا لها .. هيا اعتذر لها وقبلها .. نعم هكذا ،

-لم تتمالك سهام من أن تضحك لتلك الدعابة بصوت متهدج غلب عليه التأثر وفهمت كل شيء .. نظرت إليه بصمت معبر يشجى بكل ما كان يزخر به قلبها الكسير ، كأنما تقول له :

.. أحقا .. ؟؟ هل آن الآوان .. ؟؟



(١٠)

كان كل شيء في المنزل الأنيق ، يوحي بحياة عائلية سعيدة ترفرف عليها السعادة .. لا سيما في هذه الليلة التي حاولت سهام أن تضفي عليها جوا خاصا تفوح منه ذكريات ثلاث سنوات مضت منذ زواجها من طارق .

كانت تبدو سعيدة منشرحة الخاطر ، وهي تعدو هنا وهناك في ارجاء المنزل تعيد ترتيبب اثاث الصالون وتضفي عليه من لمساتها الانيقة التي تنم عن ذوق مرهف ، مسحة من الجمال المتناغم بالوانه الهادئة أحياناً ، الصارخة أحياناً أخرى بحيث شكل كل ذلك لوحة رائعة تبعث في النفس الشعور بالارتياح .

اعادت ترتيب وضع الزهور في المزهرية الصغيرة التي تتوسط مائدة العشاء ، وازاحت قليلا الشمعدانين اللذين كانا يتصدران المائدة ، ثم تراجعت إلى الوراء في نظرة متفحصة كخبير يقيم تحفة فنية . بدأ عليها الارتياح ، وأخذت تردد إحدى أغاني شادية المرحة .. بينما أخذ سامي يتطلع إليها باعجاب وهو يشاركها الغناء ..

نظرت إلى ساعتها التي كانت تشير إلى التاسعة مساء . ولا زال أمامها

بعض الوقت قبل مجيء طارق ، فأخذت بيد سامي إلى غرفته تساعده على ارتداء منامته وتعده بقصة مشوقة قبيل النوم كما تعود منها دائما في مثل هذا الوقت .

عادت إلى الصالون وأدارت جهاز التسجيل على إحدى السيمفونيات المفضلة لدى زوجها .. والتي كثيرا ما كان يطرب لها . كانت مكتبته الموسيقية تتكون معظمها من الموسيقى الغربية (الكلاسيك) التي احبتها سهام بعد تكرار سماعها لها ، رغم تفضيلها للأغاني والموسيقى العربية التي كانت تستمتع بها أثناء النهار عند غياب زوجها ..

أخذت مكانا على الاريكة العريضة في ركن الصالون ، واغمضت عينيها في تراخ لذيذ وهي تنساب رويداً رويداً مع أنغام لحن (ضوء القمر) لبتهوفن ..

تذكرت أول مرة سمعت فيها هذا اللحن الهادىء ينساب كجدول رقيق يتراقص على اغاريد طير عاشق في ليلة مقمرة ..! لم تكن أذناها قد تعودت بعد على هذه الموسيقى .. كانت تطرب لبعض الالحان الغربية المعروفة التي كانت شائعة اذ ذاك ، دون أن تدقق حتى في اسم أو هوية صاحب تلك الالحان ، لم يكن يعنيها ذلك على أي حال أو يشكل بالنسبة لها أهمية ما .. وبعد زواجها بطارق ، حرصت كثيراً على تكييف مزاجها مع مزاجه ورغباته .. أصبحت تميز بين موسيقى الجاز الصاخبة وأنغام التانجو أو الفالس أو البوليرو . ولو أنها تعترف ضاحكة بأنها لا تزال لا تستطيع التفريق بين موسيقى بتهوفن او تشايكوفسكي أو شوبان .. تلك الموسيقى التي كان يعشقها طارق ويدمن على سماعها ..

نظرت في ساعتها مرة أخرى .. لقد تجاوزت العاشرة مساء ..! وطارق لم

يعد بعد !! انتابها الضيق لبرهة ، ثم لم تلبث أن استعادت هدوءها وهي تستعيد من جديد شريط حياتها خلال الثلاث سنوات الماضية ..

... في مثل هذه الليلة ومنذ ثلاث سنوات تماماً ، احتفلت الاسرة بزفافهما في حفل بسيط اقتصر على الاهل بناء على رغبة طارق ، ورغم أنها كانت تتمنى لو اقيم بتلك المناسبة احتفال كبير ككل الاعراس ، إلا أن السعادة التي كانت تشعر بها اذ ذاك أنستها أحلامها تلك ..

كانت ذكريات اليوم الأول من زواجهما لا تزال ماثلة أمامها بكل مباهجها ومسراتها .. لقد كان طارق مثالا للزوج العاشق .. لطيفا ، كريما ، هادىء الطبع ، رائق المزاج ، مرهف الشعور واطلقت تنهدة عميقة وهي تتابع تسلسل ذكرياتها .

... كم كان طارق يعشق حياة البيت ويرتاح لها . كانت تستقبله عند عودته في المساء فيسارع إلى حملها بين ذراعيه مداعباً والشوق يطل من عينيه .. لم يكن يكف عن ترداد تغزله بها ، أو امتداحه للاطباق اللذيذة التي كانت تتفنن في اعدادها له ، وكم كانت تطرب لذلك وتسعد به . كان ذلك يوحي لها بالثقة والطمأنينة لمجرى حياتها الجديدة ..

نظرت مرة ثالثة إلى ساعتها .. لقد تجاوزت الآن الحادية عشرة .! بدأ القلق ينتابها .. صحيح انها تعودت كثيراً على مجيئه متأخراً حتى ما بعد منتصف الليل في بعض الأحيان .. ولكنها كانت تأمل ، في تلك الليلة ، أن يبكر في عودته .. لعله كان يذكر هذه المناسبة .. مناسبة ذكرى زواجهما التي حرصت على الاحتفال بها واعدادها لتكون مفاجأة سارة لطارق لعلها تستدرج ذكرياته وتستعيده إليها كما كان طارقها الأول ..!!



وقعت نظراتها المتكسرة على المائدة اليتيمة ، وقد أخذت الشموع المضنية فوق الشمعدانيين التي أعياها الانتظار ، تذوي وتتراقص بارتعاشة تعلن نهايتها المحتومة .. وصمت جهاز التسجيل فجأة بعد لحن الختام الصاخب لأحدى مقطوعات تشايكوفسكي المفضلة لدى طارق .. وساد الهدوء الموحش أرجاء الصالون ، وانطبع ذلك على قسمات وجهها الحزينة ، وشعرت بمدى الألم الذي سببته خيبة أملها في قضاء سهرة حالمة ، طالما أعدت لها . وهيأت كل شيء من اجلها ..

صدرت عنها تنهدة طويلة أفرغت فيها كل ما كان يفتعل في صدرها من آلام وشجون .. سمعت صوت سيارة تقترب من المنزل . لا بد انه طارق نعم لا بد انه هو .. حمدا لله ..! لا بأس . لا زال هناك متسع من الوقت ، ثم تلاشى الصوت ، وتلاشت معه كل آمالها . ضربت بقبضة يدها فوق المائدة وهي تزفر بحرقة وألم لا فائدة . لا شك أنه لم يفكر مطلقا بهذه الليلة ، وندمت على تصرفها الخاطىء .. كان عليها أن تضحي بروعة المفاجأة لتضمن حضوره في الوقت المناسب .. وأنىّ له أن يتذكر ..!! نعم ..

ـ لقد تغير طارق .. تغير كثيراً خلال هذه السنة . لم يعد ذلك الزوج الهادىء الطبع ، المرهف الشعور ، المحب لبيته واسرته ، بدأ يفتعل الشجار لأتفه الأسباب ، وأخذ يضيق بحياة البيت ، ويحاول الهرب إلى سهرات اصدقائه الحافلة بلعب الورق البريء وغير البريء ..!! نعم . فقد أدمن القمار مع مجموعة من أصدقائه ، علمت ذلك في إحدى الليالي التي قضتها المجموعة لديهم في المنزل . وتذكرت كيف احتدم الصراخ بين الاصدقاء لخلاف على اصول اللعبة.. وتجرأت ليلتها في معاتبة طارق لانتهاجه هذا المسلك الخطر وكان آنذاك متوتر الاعصاب ، فأجابها بغلظة وجفاء طالبا

إليها عدم التدخل في شئونه الخاصة .. وحاولت بعد ذلك مراراً لفت نظره إلى مغبة تلك الهواية الجديدة التي أخذت تستحوذ عليه وتؤثر على سلوكه وهدوء أعصابه ، غير انه لم يستجب لها ، ويئست منه ، فاضطرت إلى الاستسلام للامر الواقع .. لعله يفيق على خطئه ذات يوم .

وهزت رأسها بأسى ،وهي تتخيله هناك ،مع اصدقائه، واحتدم صراخهم أو تعالت ضحكاتهم لمزحة بذيئة قالها احدهم .. وهي ، هنا ، وحيدة ترقب عودة الزوج العزيز ..!!

أحست بصداع شديد ، بعد أن أعياها التفكير واضناها الحنق ، فأغمضت عينيها في محاولة للتغلب على فيض شجونها تلك .. سمعت صرير الباب وهو يرتد خلف طارق .. نظرت إلى ساعتها .. لقد تجاوزت منتصف الليل . تمالكت اعصابها ولم تتفوه بكلمة .. ولكن نظراتها المعبرة كانت تنطق بكل شيء ..!

نظر إليها وقد انتابته الدهشة ! لم كل هذا ؟! وما مناسبة هذه المائدة الانيقة ؟! ولم ترتدي سهام رداء السهرة هذا ؟! لا بد أن ثمة شيئا ما !! أيكون عيد ميلادها ؟ لا .. لا .. يذكر أنهما احتفلا به منذ بضعة أشهر فقط . أهو عيد ميلاده هو ؟ بالطبع كلا .. أتكون الليلة ذكرى زفافهما التي تحرص سهام على الاحتفال بها أكثر من أي مناسبة أخرى ؟؟ نعم انها الليلة بكل تأكيد .. يا لغبائي الشديد !!

حاول تدارك خطئه .. وغالب شعور الخجل الذي اعتراه ، فتصنع المرح وهو يقول :

ـ الله .. الله ..!! إيش هذا كله يا هوه ؟! إخص عليكي يا سهام .. ما كان

لازم تقولي لي من بدري عشان أعمل حسابي ؟ لا لا .. أنا زعلان منك ... وكمان ..

وتوقفت الكلمات بين شفتيه وهو يصطدم بنظراتها الغنية عن التعبير ! شعر بخجل شديد بينه وبين نفسه ، إلا أن كبرياءه حالت دون ما كان يتوجب عليه من اعتذار صادق أو تصرف لبق يسترضيها به .. واكتفى بمط شفتيه كأنما يقول لها ، حسنا والآن ؟!

ـ هناك ثمة طعام في المطبخ ، إذا شئت يمكنك تسخينه ، تصبح على خير ..

وسارعت إلى حجرتها تجنبا لاثارة الشجار في تلك الليلة ذات الذكرى العزيزة على قلبها . كانت خيبة الأمل أقوى من انفعالها وثورتها ، فقضت على أي رغبة لديها في الافصاح عن حقيقة مشاعرها الجريحة .. ولم يعد يبقى لديها سوى اجترار أحزانها تلك .. بصمت دفين ..!!

● ● ●

أفاقت سهام مذعورة على رنين الهاتف .. خفق قلبها بشدة ، نظرت إلى ساعتها وهي تركض نحو الصالون لايقاف ذلك الرنين المزعج . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحا ..

ـ آلو ..

اتاها صوت طارق وهو يتثاءب على الجانب الآخر من الخط :

سهام .. يبدو انك كنت لا زلت نائمة ، أنا آسف .. لقد .. أعني ..

ضغطت بيدها على صدرها بعنف كأنما لتحول بين قلبها من أن يثب من مكانه . هدأت حدة خفقاته وأخذت نفسا عميقا تستعيد به رباطة جأشها ،

اذن ها هو طارق يود الاعتذار عما بدر منه ليلة البارحة تمالكت اعصابها وهي تقول :

ـ طارق .. أهذا أنت ؟ صباح الخير .

ندمت على نبرات صوتها التي لونت بها تلك العبارة القصيرة ، هي نفسها لم تدر كيف ، ولماذا نطقت بها على تلك الصورة الحالمة المشحونة بالحنان ، والرجاء .. والامل ..!!

ـ سهام .. أنا آسف ـ

ـ طارق ..!

ـ قالتها بنبرة دافئة ، اودعتها كل مدخراتها من الأمل والرجاء ..

ـ سهام .. أنا آسف لأنني لن أتمكن من العودة لتناول الغداء ، اذ اضطررت إلى دعوة أحد الـ ...

سرت على جبينها قشعريرة باردة كتلك التي تلفح وجهها عندما تفتح باب الثلاجة .. ولم تلبث أن شعرت بتلك البرودة تتسرب إلى كافة اجزاء جسدها .. ضغطت مرة أخرى على صدرها بعنف أكثر ، جاهدت كبت أنفاسها المتهدجة وهي تعيد سماعة الهاتف إلى موضعها بهدوء ، شرس .. ـ إذن كان اعتذاره هذا بسبب تخلفه عن الغداء ! أوه كم أنا غبية أن اعتقدت غير ذلك ! منذ متى يبادر هو إلى مثل هذا الاعتذار ؟! حقاً ما أطيب قلوبنا نحن النسوة ، بل ما أشد غباءنا !!

اعتصرت خيبة أملها دموعاً ساخنة بللت وجنتيها ، فأحست بالدفء واستسلمت بتراخ تلقائي على الاريكة ، تجتر أحزانها وتجفف دموع كبريائها الجريح .

مضى النهار متثاقلا ينوء بعبء أشجانها تلك ، كان كل شيء في المنزل الانيق يبدو وقد آخرسته سياط الحزن العميق لربة الدار ، فطأطأ رأسه إحتراما لمشاعرها الذبيحة !!

أدارت جهاز التسجيل بلا مبالاة ، انبعثت منه أصوات موسيقى جنائزية ، شعرت لحظتها بانها كانت تتآمر مع زوجها لمضاعفة إحساسها بالكآبة والحزن .. نزعت شريط الكاسيت بحركة لا شعورية وقذفت به بعيداً . كأنما تقذف عنها شعورها بالقرف واليأس ! اختارت شريطا آخر ، لأحدى اغنيات أم كلثوم ، واسترخت على الاريكة وأغمضت عينيها .. شعرت إذ ذاك كأنها تضع رأسها على صدر أم كلثوم وهي تربت على كتفها بحنان ، بينما تهدهدها بأغنيتها الشجية : « حسيبك للزمن» : .. «يوم من الأيام ، حتشتاق لعطف قلبي ، دانت مش حتلاقي أبداً .. أبداً زي حبي » .. أخذت تردد كلمات الاغنية بصوت جريح سكبت فيه أشجانها ، واستنفدت كل ما في مآقيها من دموع مع آخر كلمة من كلمات الأغنية ..

صمت جهاز التسجيل الآلي ، وساد المكان هدوء موحش ، وشعرت كأنها تستسلم للنعاس على صدر أم كلثوم .

تجاوزت الساعة السادسة مساء ، وبدأ الظلام يتسلل إلى أرجاء المنزل . سامي لا يزال يلهو مع أقرانه من أبناء الجيران .. البيت هادىء ، قطع الاثاث لا تزال مغرقة في صمتها الكئيب .. تحاملت على نفسها ، ودخلت مخدعها ، نظرت إلى نفسها في المرآة تتفحص آثار الاعياء على وجهها ، أزاحت خصلة من الشعر تهدلت على جبينها ، ثم أعادت ترتيبها في وضع آخر .. شدت إلى

جسدها الفستان الازرق تزيل عنه التكسرات التي أفسدت اناقته ، ولـم تستطع مقاومة ابتسامة مريرة . اتسعت ابتسامتها وهي تتفقد سمات انوثتها ، وطبعت قبلة خفيفة فوق أناملها أهدتها إلى صورتها في المرآة ولم تلبث أن عادت إلى وجومها السابق ..

تذكرت كم كان طارق مولعاً بها ، مفتونا برقتها وسمرة بشرتها وعينيهـا السوداوين اللتين كثيراً ما كان ينظر إليهما بخبث وهو يردد أحد أبيات الغزل المعروفة عن العيون السود . فتحت أحد الادراج وامتدت يدها تلقائيا إلى البوم الصور . قلبت بعض صفحاته .. ها هي صورة زوجة طارق الأمريكية .. ليزا ..!! يا له من إسم !! ترى ماذا كان مبعث اعجابه بها ، تلك الفتاة اللعينة التي اغتصبت منها طارقها ، ثم حطمته ، والقت به إليها فتاتا .. شخصاً آخر ، غير طارق الذي كانت عهده . لم يكن جمالها من ذلك النوع الصارخ الذي لا قبل لطارق بمقاومته كانت تبدو في الصورة فتاة لطيفة ، مرحة ، من ذلك النوع الذي ينجح في اقتناص إعجاب الآخرين ومودتهـم بحركاتهـا الرشيقة ومرحها الصاخب ، وعفويتها الخبيثة ..!

ـ مسكين طارق ! ربما .. ! ولكن أنا ، ما ذنبي أنا ، في كل ذلك ؟؟ أكتب علي أن أكفر عن أخطاء الآخرين ؟ ثم إلام يستمر هذا الوضع ؟ وهل ثمة أمل ؟! أي أمل ؟!

شعرت باعياء شديد ، لم تكن قد تذوقت شيئاً من الطعام طوال يومها ذاك ، فاستلقت على الاريكة بجانب السرير ، وهي تغالـب الآم الحمـل . وذرفت دمعتين يتيمتين هما كل ما جادت به مآقيها .. واسدلت جفونها في محاولة للهرب من الواقع المرير الذي تراءى لها إذ ذاك .. فان هي إلا بضعة أشهر

ويجيء مولودها الأول . ترى أيكتب له أن يعيش كأخيه سامي بعيداً عن أمه ، أو ابنا لزوجة ثالثة ..؟

أحست برعشة تسري في صدرها المنهك عند هذا الخاطر ، وانتابتها نوبة عنيفة من البكاء .. فاستسلمت لها على مضض بعد أن اعياها التفكير وأرهقتها الهواجس ..

وصل طارق فجأة ، كان يتأبط بعض أكياس من الورق تنبعث منها رائحة الفاكهة العطرة .. وفوجيء بها .. أخذت عيناه تتساءلان بسرعة .. جال ببصره في أرجاء المخدع ، ثم ارتدت عيناه إلى سهام دون أن ينبس ببنت شفة ..!

رفعت وجهها إليه ولم تحاول اخفاء آثار البكاء : والتقت نظراتهما كأنما تلتقيان لأول مرة واستوعب طارق حقيقة المأساة . كانت نظراتها تضج بالمعاني والكلمات المعبرة التي كانت انعكاسا صارخا لمشاعرها الحزينة ، والام المعاناة التي كانت تعيشها ، صوبت إليه نظراتها الكسيرة وهزت رأسها يمنة ويسرة ، كأنما تقول له : « لم تعذبني كل هذا العذاب !؟ لم يا طارق !! ترى هل ثمة بعد من أمل ؟! إلى أين نحن سائرون ؟ إلى أين .. إلى أين ؟؟ » .

جلس إلى جوارها على الاريكة ، وأمسك برأسها بين يديه وهو ينظر في عينيها بحنان مفاجيء ، أودعه عصارة اصطراع مشاعره واضطراب افكاره ، واحست من وميض نظراته تلك مدى احساسه ، هو أيضا ، بالمعاناة والعذاب . كانت نظراته أبلغ من أي اعتذار .. ملؤها الاشفاق واليأس ..!

سهام ..!

خرجت من فمه كدخان لفافة تحترق ، حجبتها تنهدة حارة ، أحست بها كأوقع من أي كلام كان يمكن أن تقوله ..

ـ طارق ..!!

اودعتها كل ما ادخرته من المعاناة والألم واليأس ..

طارق .. إنني ..

ـ هس ..! لا تتكلمي عن أي شيء . لقد قرأت كل ما تفكرين في قوله ، عبر نظرات عينيك السوداوين ..

ـ طارق ..

ـ أعرف يا سهام ، أعرف انني تعس مثلك ، بل ربما كنت أكثر تعاسة منك .. انني ادرك مدى خطأي تجاهك ، ولكن المصيبة هي أنني لا أدرك سر خطأي مع نفسي أنا !! نعم أنا مخطىء في حق نفسي أيضاً .. وقد اخطأت معك يا سهام اخطأت معك مرتين .. بل ثلاث مرات .. اخطأت

عندما تجاهلت عواطفك ، بل عواطفنا البكر ، وتزوجت من ليزا ، رغم ما كان يربطنا منذ الصبا ! واخطأت مرة ثانية عندما سمحت لنفسي بالتسرع في اتخاذ القرار ، قرار الزواج منك !! في الوقت الذي لم أكن قد أفلحت بعد في استعادة ثقتي بنفسي ، ونسيان آثار الصدمة الأولى ، وكانت النتيجة ماذا ؟؟ خطأ ثالث يتمثل في هذا الواقع المؤلم الذي نعيشه أنا وأنت ..

ـ وبعد ؟؟!

ـ لا أدري ! في الواقع لا أدري يا سهام .. لا أدري .. دعينا نحاول

ونبدأ من جديد .. اعدك بأنني سأحاول من جهتي ، على أن تعدينني أنت بمساعدتي ، على اجتياز هذه المرحلة .. انني احتاج إليك يا سهام .. احتاج إليك .. اتسمعينني ؟؟

وتهدج صوته وهو يضم سهام إلى صدره ، بينما أخذت تتخلل شعره بحنان دافق كأنما تعده بحمايته ..



(١١)

كانت الفترة التالية ، بالنسبة لطارق ، بمثابة فترة مخاض عسيرة ، جاهد خلالها لاجتياز كل ما كان يعترضه من وهن يعوق زخم ارادته وتصميمه على النجاح فيما وطد العزم عليه ووعد سهام به .. حاول جاهدا تغيير نمط حياته ، واسلوب تعامله معها .. غير أصدقاءه أو معظمهم .. رسم لنفسه منهجا جديداً حاول به اضفاء أجواء جديدة من ملامح السعادة والمشاركة العائلية .. اصطنع تصرفاته ، لخلق شعور زائف بالهناء ، والعاطفة الخرساء التي كانت ، رغم كل شيء ، ترسخ تحت اكداس من الجليد فوق فوهة بركان ثائر ..!!

لم يكن ذلك بكاف .. فكر كثيراً . اعياه التفكير .. وضاعف من حدة طباعه وفساد مزاجه لا . ليس هذا هو الحل .. لا بد من اجراء تغيير جذري .. تغيير مثير يقتلعه من دوامةملله وتبلد افكاره وعواطفه .

واتخذ قراره ذات يوم ، وهو في غمرة ذلك الصراع الحاد المحتدم ، استقال من عمله في تلك الوزراة الشابة ، رغم ما كان قد وصل إليه من نجاح وتسلم لأعلى المراكز بالنسبة لاقرانه ، وقام بتأسيس مؤسسة خاصة للدراسات الاستشارية والتعهدات ، بالاشتراك مع صديق له . وباركت سهام خطوته

تلك لعلها تكسرجمود حياته الرتيبة ، وشجعته واغدقت عليه من جموح احلامها وآمالها ما طمأنه وبعث في نفسه دفقاً جديدا من العزم والتصميم لبناء حياة جديده تنتشله من معاناته تلك ..

مر العام الأول والثاني ، وبنهايته انتقلت الاسرة الى الفيلا الانيقة التي بناها طارق في إحدى أجمل ضواحي جدة المطلة على البحر . كان كل شيء اذ ذاك يوحي بالسعادة ، والنعيم المترف ..

سامي ، يلهو مع اخيه وليد في حديقة المنزل ، على ارجوحة هدهادة .. سهام ترشف القهوة على مقعد مريح في تراخ كسول ، وقد اغمضت عينيها في استسلام لذيذ مع انغام موسيقى حالمة لبيتهوفن (ضوء القمر) .. تلك القطعة لما تجيش بها من ذكريات .

أخذت تهز المقعد الهزاز وهي تعود بذكرياتها إلى الوراء .. كان من ينظر إليها في تلك اللحظة ، يرى على تعابير وجهها شريط ذكريات ست سنوات حافلة بالسعادة والألم ، بالعذاب والأمل ، بالحب ، بالحزن ، بالاسى ، بالفرح .. مزيج غريب من المشاعر والاحاسيس .. اوليست هذه هي الحياة ..؟!

تذكرت . اذ ذاك إحدى حكم والدتها العفوية ، التي كثيراً ما ترددها لوالدها عندما يلم به مكروه أو ضيق أو يقع في مأزق يفسد مزاجه ومزاج الاسرة كلها «أحمد الله يا رجل . لو لم تكن هذه الازمة لما شعرت بفرحة انجلائها لو لم تكن فقيراً لما شعرت بلذة الفقر ، لو لم تكن مريضا لما شعرت بنعمة الشفاء .. فعلا تلك منغصات سخيفة ، ولكن لا بد من وقوعها للوصول إلى اضدادها السارة . لم نعتقد أن

السعادة قصراً علينا ؟؟ لم الغنى ؟ لم الصحة قصر علينا ؟! لمن اذن التعاسة ؟ لمن الفقر اذن ؟! ولمن المرض ؟ أو كنا أحق بذلك من غيرنا ؟ أو لنا تفضيل خاص عن عباد الله الآخرين ؟! إن المؤمن مبتلى يا أبا طارق .. قم يا رجل قم واحمد الله على ما أنت فيه من نعمة ..» .

لم تكن سهام اذ ذاك كثيرة الاقتناع بكلمات والدتها تلك ، ولكنها كانت تجد نفسها تلقائياً ودون وعي منها تنقاد إلى الايمان بها عندما تجد والدها يستغفر الله ويحمده ويشكره ، فتهدأ نفسه ويسترد طمأنينته . وكانت المركب تسير رغم الأهواء العاصفة التي كانت تمر بها تلك الاسرة الطيبة بين آن وآخر ..

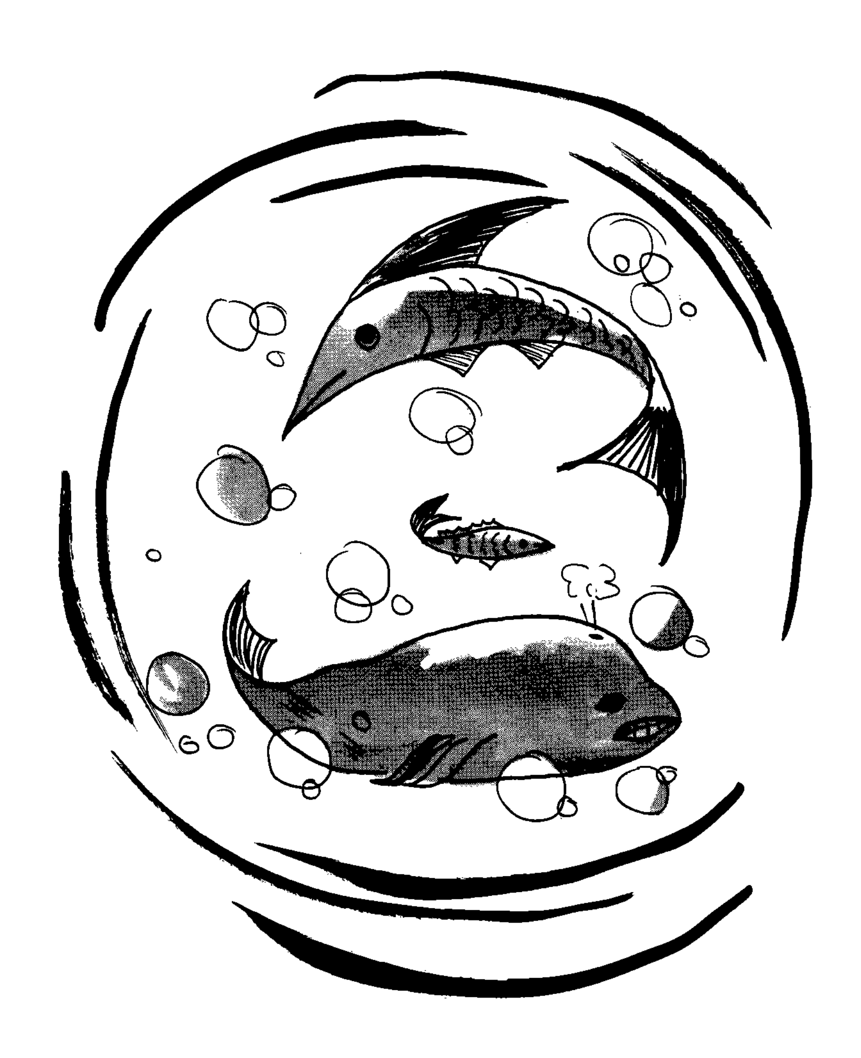
... المركب يسير ..!!

أحسست بإهتزاز المقعد يصيبها بما يشبه الدوار .

... المركب يسير .. !!

أيقدر لمركبنا أن يسير كما سار مركب اسرتنا ، رغم العواصف الهوجاء التي تزخر بها حياتنا هذه ؟؟

وبدد تشاؤمها ذاك صوت بوق سيارة طارق يعلن قدومه . كان الوقت لا يزال باكراً ، اذ كان قد اعتاد في الاشهر الاخيرة على العودة متأخراً نظراً لالتزاماته الجديدة وضرورة السهر على أعمال المؤسسة ورعاية مصالحها المتشعبة . ورغم ذلك كانت سعيدة بنجاحه هذا ، لم تكن تبدي له أي تبرم أو ايحاء بالضيق من انهاكه الشديد في بناء مستقبله وتحقيق آماله الطموحة . كانت تبذل جهدها في خلق اجواء ملائمة مريحة تمتص كل ما كان يبدو عليه من ارهاق أو ضيق في كل مرة كان يعود فيها من العمل في المؤسسة . كانت تعزو ذلك إلى شدة ارهاقه في العمل ، وكثرة مسئولياته الجديدة أو المناقشات



غير الشريفة التي كثيراً ما كان يتعرض لها من بعض معدومي الضمير ، فتهدد مستقبل المؤسسة بالدمار .. لولا اصراره العنيد وكفاحه المستميت . كان يقول لها انه بمثابة (حبة سردين) تحوم حولها اسماك القرش والدلفين من كل جانب تريد أن تبتلع حتى حبات (البيض) الدقيقة التي تخرج لاصطيادها ثم تستدير إلى (حبة السردين) الصغيرة تريد ابتلاعها هي ايضاً .. !! ويل لنا من أسماك القرش !! نحن صغار السردين .. كان يقولها دائماً كلما مر بأزمة من تلك الازمات .

طبع قبلة خفيفة على خدها ويده تداعب خصلات شعرها المستكين في استرضاء مشبوه ..!

رفعت رأسها بحركة عفوية وهي تضع يدها على صدغها في علامة استفهام مرحة :

ـ خير يا رجل ؟! ما وراءك ؟!

اجاب ، متصنعا المرح ، رغم ارتباكه الواضح :

ـ يا لك من خبيثة !! هل شممت الرائحة ..؟!
ـ أي رائحة تعني ؟!
ـ رائحة السفر ..
ـ سفر ؟! مرة أخرى ؟!!

ـ نعم يا سهام ، سأسافر غدا إلى طوكيو في رحلة عمل ـ مفاجئة ـ قد تستغرق اسبوعين أو ثلاثة ، وسأمر في طريق ذهابي على لندن وباريس ، لقضاء بعض المهام العاجلة للمؤسسة انك تقدرين طبعاً الـ ..

ـ نعم .. نعم .. ادرك ، ادرك تماماً ..

اصطبغ وجهها بلون داكن ، عكس احتقان مشاعرها الحبيسة ، ولم تلبث أن تمكنت من التغلب على تلك الاهتزازة العنيفة التي اخلت بتوزان هدوئها ذاك الذي دأبت على الحفاظ عليه ، رغم كل شيء ..

ـ أنا آسف يا سهام ، ولكن أنت تعرفين مدى المسئولية الملقاة على عاتقي ..

وتنهدت من الأعماق ، بزفرة مبحوحة غصت بالدموع ، وقامت تعد ، كعادتها ، حقيبة السفر هرباً من شجار حرصت على تلافيه ..

أخذت تستعيد في ذهنها ،وهي ترتب ملابس زوجها في الحقيبة ، المرات العديدة التي سافر بها طارق خلال هذا العام .. ست مرات .. بل سبع .. نعم سبع سفرات خلال عام واحد ..! انه يكثر من السفر بحجة اعماله في المؤسسة ، وكان في كل مرة يعدها بأن تكون آخر رحلة عمل له في هذا العام .. أو يعدها باصطحابها معه في الرحلة التالية ، فعلا سبق له اصطحابها معه الى باريس ولندن قبل بضعة اشهر . وكم كانت سعيدة للقيام بتلك الرحلة ، رغم انشغال طارق عنها معظم النهار بسبب اعماله ومقابلاته مع وكلاء المؤسسة أو لعقد صفقات جديدة أو التفاوض بشأن أمر من أمور المؤسسة ، كما كان يقول لها .. كانت تتقبل ذلك بصدر رحب وتقضي يومها بزيارة محال البيع الانيقة في شارع اكسفورد أو ريجنت ، وابتياع ما يحلو لها ، لقد كان طارق كريما معها في هذه الناحية .. كأنما كان يشتري صمتها .. ثم تعود إلى الفندق تقضي به بقية اليوم ، حتى عودة طارق كان احيانا يصطحبها معه للعشاء او السهرة ، وأحيانا يتعتذر لها بارتباطه مع احد العملاء ، وتقضي الليل وحيدة أمام شاشة

التلفاز حتى يغلبها النعاس وتستيقظ على صوته وهو عائد في الساعات الأولى من الفجر ، وملامح السهرة على محياه ، تفضح طبيعتها ومداها ..

لم تكن لتستطيع أن تفغر فاها بكلمة عتاب . كان جوابه على طرف لسانه جاهزاً ، كأنما كان قد أعده من قبل بانتظار اشارة البدء :

المؤسسة صحيح ربما كنت قد ذهبت لتناول العشاء في احد المطاعم مع احد العملاء وربما دعاني هو إلى قضاء السهرة المؤسسة . في احد المطاعم مع احد العملاء وربما دعاني هو إلى قضاء السهرة في أحد النوادي الليلية ، هذه عادتهم هنا كما تعرفين .. ولكن كل ذلك صدقيني يا سهام ، من أجل المؤسسة ، من أجل مستقبلنا .. اتفهمين ؟

.. من أجل مستقبلنا ..!! ترى اي مستقبل يعنيه ويسعى له ..؟!

ـ اسمعي يا سهام : لقد مللت من سماع هذه الاسطوانة التي لا تملين تكرارها كل يوم ، لقد افهمتك كل ذلك من قبل .. فلا تحمليني على أن أندم لاصطحابك معي ، والا سوف لن اكرر هذا الخطأ مرة أخرى ..

وكانت تضطر للرضوخ للأمر الواقع ، على مرارته ، حتى انتهت تلك الرحلة ، واقسمت على عدم تكرارها ان كانت رحلاتها معه ستكون على تلك الصورة المهينة . فليفعل ما يشاء . هذا قدرها ..! ولكن ان تظل طوال الليل في مخدعها بالفندق تنتظر عودته ، ليصب عليها ، بعد ذلك ، جام غضبه اذا ما تفوهت بكلمة عتاب خجولة ، فهذا فوق احتمالها وصبرها ..!

وفضلت بعد ذلك البقاء مع ولديها ومعاناتها وهواجس الغيرة المجنونة تؤرق نومها . وتكررت سفراته هذه .. في البداية كانت الرحلة تستغرق اسبوعا او عشرة أيام ، ثم اصبحت اسبوعين ، ثم ثلاثة .. ثم تلاحقت سفراته ، وتقاربت مواعيدها ، وأحست في النهاية ، بالخطر المحدق بها ..

أحست بالحقيقة المرة ، او انها أدركت بحسها الغريزي ، كأنثى ، السبب الكامن وراء رحلاته تلك ..! تأكد لها ذلك ذات مرة عندما شكى لها صديقه وشريكه في المؤسسة ، كثرة غياب طارق وتعدد رحلاته للخارج بحجة العمل رغم أن تلك الرحلات تسنفذ وقته وتهدر اموال المؤسسة فيما لا طائل وراءه . وصدمت يومها بصراحة صديق طارق ، وادركت انها كانت محقة في ارتيابها ، وان صديقه هذا كان محقاً في لومه لطارق وانه ظل كثيراً يقاوم اضطراره لمصارحتها بتلك الحقيقة لعلها تفلح في اقناعه بخطأ مسلكه ، ولكن يبدو أن الكيل قد طفح به ، ولم يعد يحتمل مزيداً من التصرفات الطائشة وغير المسئولة من قبل شريكه وصديقه ، مما أخذ يهدد المؤسسة بالفشل وربما الافلاس .

اقفلت غطاء الحقيبة وهي تلقي عليها نظرة فاحصة ، خشية أن تكون قد نسيت شيئاً من ملابسه ، فتتعرض لتقريعه عند عودته ، رغم تفاهة ما كانت قد نسيت وضعه في الحقيبة .. كان في كل مرة يعود فيها من رحلاته تلك ، يبدو وكأنه عائد إلى سجن كئيب ! كانت تستشف من نظراته التائهة المثقلة بالهموم والشرود الأخرس ، انه كان يعاملها برفق مسموم ، وحذر حقود ، كسجين يرائي سجانه ، وقد اعتاد على رشوته كلما عَنْ له أن يهرب من سجنه ..!

أعدت طعام العشاء ، وجلست أمامه على المائدة ، وهي تراقبه يلتهم طعامه بشكل آلي ، بينما استغرق ، كعادته ، في شروده وكآبته ، ومحاولة التهرب من أي حديث يمس رحلته أو سلوكه ..

اطلقت زفرة طويلة مشحونة بكل ما كان ينفعل في صدرها من أحاسيس ، وأخذت تتشاغل في قضم لقمة من الخبز ، تحمي بها اسنانها من أن تتكسر ،

حنقاً ومرارة .. ليس في استطاعتها أن تتكلم أن تعترض .. أن تنصح ، ولا حتى أن تعتب .!

تذكرت ذات مرة عندما فاتحته بشأن كثرة رحلاته تلك ، ونتائجها الضارة على المؤسسة ، وعلى مسار حياتها الزوجية ، ثار في وجهها وارغى وازبد « اتريدين أن تقفي حجرة عثرة في طريق مستقبلي ، في طريق نجاحي ؟ أنت لا تفهيمن هذه الامور ، الافضل لك أن تهتمي بشئون البيت والأولاد ، دعي هذه الأمور لي أنا .. أنا الذي اكافح وأعرق واحترق من أجل تأمين المستقبل لك وللاولاد .. أنت لا يهمك سوى أن اعود إلى البيت مبكراً ، ونبقى معاً ، كعاشقين بلهاوين ، لقد أفسدت الكتب والروايات التي تدمنين على قراءتها خيالك ، اسمعيني يجب أن تعيشي في عصرك ، وتدعي عنك ترهات الخيال والاحلام السخيفة التي تصورها لك تلك الروايات والاشعار .. افهميني يا سهام ـ الدنيا تغيرت .. لم تعد السعادة تقاس بعدد ابيات الشعر التي يستطيع العاشق أن يتغزل بها في حبيبته ، أو عقود الياسمين التي يحلي بها جيدها عند كل موعد لقاء !! المرأة ، الان استبدلت عقد الياسمين بعقد الالماس واللؤلؤ .. لم يعد الشاعر بقادر على ابتياع قوته ببيت من الشعر قد يرفعه إلى مصاف الألهة وجهابذة الفن ، ولم تعد الحسناوات يتأوهن تحرقا لنيل نظرة اعجاب من أديب ناجح .. كلمة واحدة ، فقط ، كلمة واحدة غير واضحة المعالم ، تغري أحلى حسناوات الدنيا بالركوع تحت قدمي صاحب تلك الكلمة غير واضحة المعالم ..!! في ذيل وريقة خضراء اسمها : «شيك» .. ! نعم شيك .. بل شيكات .. فهذا هو عصر الشيكات ، عصر المال .. اصحي يا سهام ..! انظري الى الآخرين .. لا تجدينهم يتحدثون سوى بلغة الملايين .. الملايين التي تهب لكل من يمتلكها ، مفتاحا سحريا ، يلج به كل الابواب المغلقة ..!


ادفعوا لأمر
هاشم

انني اسعى وراء هذا المفتاح السحري ، وسأناله .. مهما كان الثمن »

استمعت سهام أنذاك ، إلى طارق ، وهو يردد تلك العبارات وقد انتابه هوس غريب ، بعث في نفسها الذعر واليأس والقرف .. وانتابها شعور عميق بالحزن . كانت تعتقد انه قد يكون وقتها يمر في أزمة قاسية نتيجة معاناته في ادارة شئون المؤسسة واقالة عثراتها التي كثيراً ما كانت تتعرض لها .. تذكرت حديثه عن اسماك القرش والسردين .. وسمحت لنفسها بأن تجد له عذرا فيما قاله ..!

ولكن ما باله الان ؟! حسب علمها الامور تسير على خير ما يرام في المؤسسة ، وان الارباح تتضاعف كل يوم ، بدليل هذا الفيض المفاجيء من الهدايا والمشتروات والدعوات الباذخة ..! كذلك تلك المساهمات الكبيرة في تجارة العقار والاسهم .. لقد كان بامكانه بعد ذلك ، أن يعهد بمهماته تلك الى احد اعوانه في المؤسسة ، وان يخفف عنه أعباء الانهماك في ادارة شئون المؤسسة إلى الحد الذي استهلك فيه سعادة حياته العائلية ودمر هناء اسرته .. وكانت تجزم بأنه ، هو نفسه لم يكن سعيداً بذلك على أي حال ، اذن لم كل هذا ؟! أهو هروب من حياته ، من معاناته ، من رواسب الماضي ؟! أهي محاولة خاطئة في فهم واقع الحياة الجديدة ؟! أهو رد فعل عنيف لملامح العصر ومفاهيمه الشاذة ؟! أهو سَعْيٌ لا ارادي . لتعويض فشله في حياته الزوجية السابقة ، بنجاح مادي . يعتقد انه سيطغى على طفوات ترسبات ذلك الفشل ؟ ربما هذا . وربما ذاك .. بل ربما كانت كل تلك الاسباب مجتمعة ، ادت إلى انتهاجه هذا المنهج المدمر من الحياة ..؟

انتهى من تناول طعامه ، وأخذ ينفث دخان لفافته بشراهة وهو يرشف فنجان القهوة ، ونظراته الزائغة لا تستقر على شيء ..! كان يسترق النظر

إليها ، بين حين وآخر ، ثم لا يلبث أن يرتد بصره إلى اللاشيء ! مجرد نظرات زائغة تخفي في ثناياها افكاراً مضطربة تعبر عن توتر اعصابه المشدودة ..!

امتدت يدها ، بلا وعي ، الى علبة السجائر وأخذت لفافة منها .. اشعلتها بتثاقل .. قليلا ما كانت تلجأ إلى التدخين ، ولكنها احست برغبة شديدة في استنكاه رائحة السيجارة في جوفها المضطرب ..!

نظر إليها مشدوها ..! صوبت إليه نظرات باردة كالحديد .. وضعت أحد كفيها على خدها الايسر ، ودخان اللفافة يتصاعد في حلقات متتابعة كعلامات استفهام بليغة .

اشتدت قبضة اصابعه على اللفافة ، وأخذ يلتهم اجيجها بشراهة .. زاغت نظراته مرة أخرى في اللاشيء ! كان ، في الواقع ، يخشى من التقاء نظراته المخذولة بنظراتها اليتيمة .. كان يشعر بأنه اعجز من أن يحتمل وهج الحقيقة الصارخة تضج بها عيناها .. واستسلم لجبنه ، أو هروبه المعتاد بلا مبالاة مقصودة ..!!

لم تشأ ، هي من جانبها ، تفجير الازمة في تلك اللحظة ، كانت قد عودت نفسها على انتهاج اسلوب ناجح في تمرير الازمات وعدم اتاحة الفرصة له لتفجير الصراع . كانت لا تزال تأمل في أن يثوب إلى رشده في يوم ما ، ويعي حقيقة المأساة التي يسطر فصولها بعناد كمن يريد أن ينهي الفصل الاخير منها مهما كانت النهاية ! وراهنت على الزمن ، رغم انه امتد بها كثيرا ولكن : « لا بأس لن أخسر الرهان » وتحاملت على نفسها وانتزعت ابتسامة لا معنى لها ، وهي تسأله :

ـ هل ستطول غيبتك هذه المرة أيضاً ؟

ـ لا أدري .. ربما استغرقت ثلاثة او اربعة اسابيع على الاكثر ، على أن ازور وكلاء المؤسسة في طوكيو ، وفرانكفورت ولندن وربما باريس .. على فكرة ، ماذا تريدين أن أحضر لك من هناك ما رأيك في عقد من اللؤلؤ الياباني أو معطف من الكشمير الانجليزي أو ..

ابتلعت ريقها ، التقطت نفسا عميقاً من لفافتها وقذفت بها في فنجان القهوة كأنما تطفيء شعلة غضبها المتأجج ..

.. أهذا هو كل ما يهمه ؟! معطف ؟ عقد من اللؤلؤ يشتري به صمتها واصطبارها .. ماذا يظن هذا الابله ؟؟ إلام يتعامى عن الحقيقة ؟!

نظرت إليه باحتقار ومرارة ، كي لا تطبق على عنقه ، وغادرت مكانها إلى الشرفة تستعين بهوائها الطلق على توسيع مسام رئتها المشحونة بالالم والهوان .. لحق بها إلى هناك وقد اربد وجهه حنقاً ، وتقلصت عضلات وجهه وهو يمسك بكتفيها يهزهما بعنف .. نظرت إليه بذعر متسائلة ..!

ـ انني احذرك ياسهام من أن تعودي إلى سرد تلك الاسطوانة المعتادة .. لقد مللت منها .. مللت .. مللت منك ومن الاولاد ومن البيت ومن كل شيء.. اتفهمين .. كل شيء سأسافر وقت ما يحلو لي وساغيب ما شاء لي .. افعلي ما بدا لك .. أنت حرة ، وأنا حر .. أنا سيد نفسي ، وليس لاحد ، أي أحد ، وصاية علي ..! اتفهمين ؟

افلتت من قبضة يده بعنف وركضت هاربة إلى مخدعها وقفلت الباب خشية أن تفقد زمام اعصابها وتنفجر الازمة التي تتحاشى أو تخشى وقوعها ..

قضت في مخدعها لحظات مريرة من الحزن والشعور باليأس .. جففت دموعها ، ذلك الرفيق الوفي ، وشعرت بالجفاف يسيطر على كل حواسها ..

جفاف في عينيها ، وفي قلبها ، وفي عواطفها .. وفي امالها واحتمالها .. كل شيء حولها كان يوحي ، بل يصرخ ، بالجفاف القاتل ..! ووجدت نفسها دون أن تعي تتحول الى كتلة جافة .. كقطع الاثاث التي يزدحم بها المنزل .. واستغربت أن داهمها النعاس رغم كل شيء .. فاستسلمت للنوم كمن يهرب من قدره .

(١٢)

قضى طارق ليلته تلك في احدى حجرات المنزل المعدة للضيوف .. لم يكن يشعر بأي رغبة في النوم فذهب إلى الصالون وأخذ يتشاغل في اعداد اوراقه التي قد يحتاج إليها في رحلته تلك .. احصى الشيكات السياحية ، والعملات الاجنبية التي ابتاعها للرحلة ، دون بعض الملاحظات في مفكرته ، وادار جهاز التسجيل .. تناهى الى سمعه صوت الموسيقى الحالمة التي كان يعشقها .. انتابه اضطراب كئيب .. احس بوخزات مؤلمة أشبه بطعنات سكين ثلمه تنهال على صدره ، انفاسه تتلاحق .. اطنان من الحديد تضغط على صدره .. طنين مكبوت يعوي في اذنيه .. اسياخ من الحديد الملتهب تلسع جبهته .. تمتد الى رأسه اطنان الحديد تزداد ثقلا ، اقفل جهاز التسجيل بضربة من كفه .. القاعه كلها تضج بعواء الموسيقى ، تجذبه ، تشده إلى واقعه ، إلى ماضيه ، تغرقه حتى اذنيه في بحر صاخب من التناقضات والدوامة تجرف في طريقها كل الاشياء .. اراد ان يصرخ .. أن يبكي .. أن يفعل أي شيء !! خانته دموعه ، احتبس الصوت في صدره اللفافات المسعورة تحترق في فمه .. ضباب كثيف من الدخان يحجب عن عينيه الرؤية .. رؤيا حاضره ، مستقبله ، ظلام دامس يغشى عينيه ، لفافة اخرى تحترق ، وشعاع كسول بدأ يتسرب عبر النافذة وأخذت الشمس المتثائبة تزحف بهدوء لتبدأ مشوارها المعتاد .. ورقة جديدة من



«نتيجة» الحائط تتساقط لتسجل احداث يوم جديد .

•

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً ، لم يبق على موعد اقلاع الطائرة سوى ساعتين .. حمل طارق حقيبته والقى نظرة كسيرة على ارجاء المنزل قبل ان يوصد الباب خلفه ويتجه الى المطار .

احتل مقعده الوثير في الطائرة الضخمة المقلعة إلى لنـدن ، لم يكن في وداعه في المطار سوى صديقه وشريكه عادل . تبادلا بعض العبارات المتعلقة بعمل المؤسسة وبرنامج الرحلة ، كانت تبدو عليه اثار الارهاق الشديد من معاناة ليلة البارحة . بدأ ساهما يعلو وجهه اصفرار داكن ابرز تلك الخطوط الغائرة التي بدت واضحة في ثنايا جبهته وخديه . وترسم على محياه خطوطا اخرى أكثر عمقا ، كجرح غائر كف عن النزف بعد أن اعياه الصديد .. ولكنه يخبيء تحت تلك القشرة الواهنة ورما خبيثا حاول جاهدا طمس معالمه بمساحيق زائفة ملأت تلك المساحة الضيقة التي كان يدور حولها بنكهة لزجة ، تنزلق عليها مجريات حياته باهتزازات رعناء ، تبعث على الغثيان وهو يندفع بسرعة في طريقه .. الى الهاوية ..!!

تشاغل اثناء الرحلة ، بمراجعة اوراقه وملفات العمل التي كان يحتضنها داخل حقيبته السوداء .. إلى أن هبطت به الطائرة في مطار هيثرو بلندن .

استقل عربة تاكسي لتقله إلى الفندق الذي اعتاد الاقامة فيه كلما جاء إلى لندن في رحلاته المتتابعة تلك . في الطريق مرت امامه المشاهد المعتادة التي كاد أن يحفظها عن ظهر قلب كل شيء في مكانه المعتـاد .. سيارات التـاكسي السوداء الضخمة تملأ الشوارع ، سيارات الباص التقليدية بطابقيها الطريفين تغص بالركاب المتثائبين .. باعة الصحف ، اعلانات «النيون» صور ومشاهد

من افلام الموسم تغطي واجهات دور العرض .. اثاره احد تلك المشاهد ، وعاد بذاكرته إلى الوراء .. تسارعت اشرطة الذكريات واختلطت بافكاره المضطربة . تذكر اول مرة جاء فيها الى لندن وهو في طريقه الى الولايات المتحدة .. وفجأة طلب إلى السائق أن يغير اتجاهه ويتجه به الى ميدان البيكاديللي ..

أخذ ينظر إلى تلك المشاهد المألوفة كأنما يراها لأول مرة .. رغم كثرة رحلاته إلى لندن فقد كان يمر بها دون أن تستثير انتباهه ، فقد تعودت عيناه على كل تلك المشاهد والمعالم التي لم تكن بالنسبة إليه سوى جزء من روتين حياته الجديدة التي اعتادها .. ولكنه هذه المرة أخذ يشعر باحساس جديد ، مختلف .. احساس يشده الى ذكرى اول رحلة إلى لندن والى حي البيكاديللي بالذات ..!

دارت به عربة التاكسي حول الميدان وفي المنعطفات المتفرعة منه ، حتى بدأ الضجر ينتاب السائق ، سأله بأدب مشوب بالضيق :

ـ سيدي ، هل اتابع السير هكذا حول الميدان ..؟!

وافاق لنفسه .. شعر بخجل وهو يبدو كسائح ابله بهرته معالم المدينة العجوز ، فطلب الى السائق التوجه الى الفندق .

وفي المساء شده الحنين ، حنين غريب الى العودة الى البيكاديللي . نقد السائق اجره ، واخذ يسير راجلا ، وعلى مهل ، يتسكع مع المتسكعين فوق ارصفة الشارع ومنعطفاته .. مر من أمام الفندق العتيق الذي سبق له ان أقام فيه ليلته عندما كان في طريقه الى امريكا .. كل شيء كما تركه.. ربما ازدادت اسودادا تلك الحجارة التي تكسو الواجهة الامامية للفندق .. وتلك الستارة

الحمراء ، التي تميز مدخله الرئيسي وتحمل اسمه ، يبدو انها قد جددت حديثا .. والحاجب العجوز الذي كان يقف امام الباب ، استبدل بصبي يافع بدا مزهوا ببذلته الانيقة ذات الازارير الصفراء اللامعة .. تمنى لو امكنه الصعود إلى تلك الغرفة التي قضى فيها ليلته تلك . وطرد عن ذهنه هذا الخاطر وتابع سيره ..

تلك هي صالة العرض التي شاهد على واجهتها صورة الحسناء العارية في ذلك الوضع المثير كان ثمة ايضا ، صورة اخرى مشابهة ، ولكنها اكثر اثارة ووقاحة .. لم تستثر فيه الصورة ايا من تلك الاحاسيس المراهقة التي احس بها تلك الليلة .. ولكنه ، رغم ذلك ، أخذ يحدق بها مليا كأنما يرى فيها صورته منذ اكثر من اربع عشرة سنة .. عندما بهت لأول مرة وهو يرى ذلك المنظر المثير .. وابتسم لنفسه ، وكان بوده لو اطلق قهقهة عالية يسخر بها من براءته الساذجة تلك ..!

تابع المسير على غير ما هدف .. واجهات النوادي الليلية بمنعطفات (سوهو) تنبعث منها الاضواء الحمراء المحمومة تعلن عن بضاعتها الرخيصة ، وامام كل منها وقف سماسرة صفقات يديرون حلقا المزاد .. وصراخهم يملأ الشارع في تنافس محموم ، لم يدر لماذا عن له ، اذ ذاك ، أن يتذكر (حراج الغنم) القديم في باب مكة .. واصوات الباعة من البدو تتعالى لاجتذاب الزبائن .. الذي كانوا بدورهم، يحاولون اظهار مهارتهم في انتقاء افضل الخرفان .. وادسمها ..!!

لفت انتباهه نادي ليلي جديد لم يسبق له مشاهدته من قبل ، لوحة الاعلانات المثيرة كانت كفيلة باغرائه بتجربته ، تجربة هذا النادي بالذات ،



فقد انتابه الملل من كثرة ارتياده النوادي الاخرى التي لم تفلح في تجديد برامجها العفنة رغم ازدياد درجة الاثارة الوقحة ، وازدياد عدد المشاهد الفاضحة التي تقدمها في برنامج السهرة ..!

إمتدت يده ، تلقائيا ، وبحركة لا شعورية ، تتحسس محفظة نقوده قبل أن يدلف إلى النادي وهو يتطلع خلفه ، خشية أن يراه أحد من معارفه أو أصدقائه ، فقد كان يحرص كثيرا على تجنب الامكنة التي يتواجد بها عدد كبير من (المواطنين) الذين كانوا بدورهم يقومون بنفس (اللعبة) ، ورغم ذلك فكثيرا ما كانوا يلتقون فجأة ، في نفس المكان وكل منهم يداري خجله بالتهرب من نظرات الاخرين حتى صار بينهم شبه اتفاق ، غير مقصود ، بتجاهل كل منهم للاخر .!

اصطدمت يده بحافظة نقوده المكتظة باوراق النقد ، واعترته رعشة خفيفة ، لم تلبث ان زالت بفعل توهج الضوء الاحمر المنبعث من داخل الصالة ، وقد سلط على احدى الافاعي الشقراء وهي تتلوى على انغام ناي هندي ، كأنما تلعق بشفتيها ، ذلك الفحيح المحموم قبل ان تقذف به سما زعافا تخدر به تلك الذئاب الجائعة التي كانت تعوي في الصالة ..

ضغطت يده مرة اخرى على محفظة نقوده وهو يقاوم احساسه القوي بتلك الرعشة الطارئة !! نفس الرعشة التي اعترته اول مرة ، ومنذ اكثر من اربعة عشر عاما ، عندما امتدت يده الى جيب سترته قبل ان يهم بالدخول الى ذلك النادي الليلي ، فاصطدمت بشيء صلب افاقه من ذهوله قبل ان ينزلق في ذلك الماخور !!

واغتصب ابتسامة شوهاء ، وهوِ يحتضن حافظة نقوده كي لا ترتد به الذكرى الى تلك الليلة ..

.. ودلف إلى الصالة كطفل افلت من بين يدي حارسه الأمين .. وابتلعته الدوامة .. كعادته .. في كل لحظة ضعف !!

« انتهت »

كتب صدرت	المؤلف
١ ـ الجبل الذي صار سهلا ـ نفد ـ	الاستاذ أحمد قنديل
٢ ـ من ذكريات مسافر	الاستاذ محمد عمر توفيق
٣ ـ عهد الصبا في البادية	الاستاذ عزيز ضيا
٤ ـ التنمية قضية ـ نفد ـ	د. محمود محمد سفر
٥ ـ قراءة جديدة لسياسية محمد علي التوسعية	د. سليمان الغنام
٦ ـ الظمأ (مجموعة قصصية)	الاستاذ عبد الله جفري
٧ ـ الدوامة (قصة)	د. عصام خوقير
٨ ـ غدا أنسى (قصة)	د . أمل شطا
٩ ـ موضوعات اقتصادية معاصرة	د. علي بن طلال الجهني
١٠ ـ أزمة الطاقة	د. عبد العزيز الصويغ
١١ ـ نحو تربية اسلامية	الاستاذ احمد محمد جمال
١٢ ـ الى ابنتي شيرين	الاستاذ حمزة شحاته
١٣ ـ رفات عقل	الاستاذ حمزة شحاته
١٤ ـ شرح قصيدة البرده	تحقيق ودراسة د . محمود حسين زيني
١٥ ـ عواطف انسانية (شعر)	د. مريم البغداي
١٦ ـ عمارة المسجد الحرام	الشيخ حسين باسلامة
١٧ ـ وقفة	د. عبدالله حسين باسلامه

كتب صدرت	المؤلف
١٨ ـ خالتي كدرجان	الاستاذ احمد السباعي
١٩ ـ أفكار بلا زمن	الاستاذ عبدالله الحصين
٢٠ ـ علم ادارة الافراد	الاستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
٢١ ـ الابحار في ليل الشجن (شعر)	الاستاذ محمد الفهد العيسى
٢٢ ـ طه حسين والشيخان	الاستاذ محمد عمر توفيق
٢٣ ـ التنمية وجها لوجه	د . غازي عبدالرحمن القصيبي
٢٤ ـ الحضارة تحد	د . محمد محمد سفر
٢٥ ـ عبير الذكريات (شعر)	الاستاذ طاهر الزمخشري
٢٦ ـ لحظة ضعف (قصة)	الاستاذ فؤاد صادق مفتي

تحت الطبع

	المؤلف
١ ـ السعد وعد (مسرحية)	د. عصام خوقير
٢ ـ الرجولة عماد الخلق الفاضل	المرحوم الاستاذ حمزة شحاته
٣ ـ عام ١٩٨٤ (جون اورين)	ترجمة الأستاذ عزيز ضيا
٤ ـ قصص من سومرست موم	ترجمة الاستاذ عزيز ضيا
٥ ـ تسألي	د. حسن نصيف
٦ ـ مجلة الاحكام الشرعية	د. عبد الوهاب أبو سليمان
٧ ـ قال وقلت	الاستاذ احمد السباعي
٨ ـ أيامي	الاستاذ احمد السباعي
٩ ـ الامثال الشعبية في مدن الحجاز	الاستاذ أحمد السباعي
١٠ ـ التاريخ العربي وبدايته	الاستاذ أمين مدني
١١ ـ حصاد عمر وثمرات قلم	الاستاد محمد حسين زيدان
١٢ ـ خدعتني بحبها	الاستاذ عبدالله بوقس
١٣ ـ مدارسنا والتربية	الاستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
١٤ ـ مكانك تحمدى	الاستاذ احمد محمد جمال
١٥ ـ هكذا علمني (وردذورث)	الاستاذ ابو عبد الرحمن بن عقيل
١٦ ـ رقيب اليوم	الاستاذ حامد مطاوع

١٧ ـ نبض	الاستاذ عبد الله عبد الرحمن جفري
١٨ ـ عطر وموسيقى (ديوان شعر)	الاستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
١٩ ـ اعلام الحجاز في القرن ١٤ هـ	الاستاذ محمد علي مغربي
	د. احمد محمد طاشقندي
٢٠ ـ السنيورة (قصة)	د. عصام خوقير
٢١ ـ ادب القران	الاستاذ فؤاد شاكر
٢٢ ـ الاستراتيجية النفطية و منظمة الاوبك	الاستاذ احمد محمد طاشكندي
٢٣ ـ الوحدة الموضوعية في سورة يوسف	د. حسن محمد باجوده
٢٤ ـ الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الاستاذ هاشم عبده هاشم
٢٥ ـ بائع التبغ	الاستاذ حمزة بوقرى
٢٦ ـ دوائر من دفتر الزمن	الاستاذ سباعي عثمان
٢٧ ـ جسور الى القمة	الاستاذ عزيز ضياء